سيرة شاعر الكرنك وشعره

مقدمة بقلم : محمد رضوان

دخل شاعر الكرنك أحمد فتحي (١٩١٢ ـ ١٩٦٠) دائرة النسيان منذ رحيله عن الحياة في القاهرة قبل نصف قرن من الزمان ولم يعد يذكره أحد إلا من خلال عدة أغنيات شهيرة هي أنشودة الكرنك التي لحنها وتغنى بها الموسيقار محمد عبد الوهاب سنة ١٩٤١ وقصيدة «فجر» التي لحنها وتغنى بها الموسيقار رياض السنباطي سنة ١٩٤١ أيضًا وقصيدة «قصة الأمس» التي لحنها الموسيقار رياض النسباطي وتغنت بها كوكب الشرق سنة ١٩٥٨ ، أما قصيدته «حديث عينيين» التي لحنها رياض السنباطي ، وتغنت بها «أسمهان» سنة ١٩٣٨ ، فلم يعد يذكرها أحد ؛ لأنها لم تعد تذاع ولا يكاد يعرفها أحد إلا المتخصصون في عالم الموسيقى والغناء والطرب .

أما تراثه الشعري فلا يكاد لا يعرف أحد عنه شيئًا ، إلا ديوانه الوحيد «قال الشاعر» الذي أصدره الشاعر في القاهرة سنة ١٩٤٩ ويرجع تعرفي على شعر أحمد فتحي إلى الفترة التي تعرفت فيها على الشاعر الكبير صالح جودت في مارس ١٩٦٨ أثناء دراستي الجامعية حين ترددت عليه بمكتبه بمجلة المصور بدار الهلال بوسط القاهرة ، وعرضت عليه دراسة مخطوطة لي عن «عبقرية زكي مبارك» ، فكتب مقدمته وفوجئت بمقال للشاعر الكبير في أحد أعداد مجلة الكواكب في مايو ١٩٩٦ تحت عنوان «مأساة شاعر سنتريس» و«مأساة شاعر الكرنك» روي فيه قصة رفض كتابي من الهيئة المصرية للكتاب عندما وجدوا أن كاتب مقدمته هو الشاعر صالح جودت الذي كانوا يناصبونه العداء يومئذ لمواقفه الفكرية الحاسمة حيث سبق ورفضوا ديوان أحمد فتحي الكامل الذي سبق وقدمه لهم بعد أن سهر على جمعه وتصنيفه لعدة سنوات من مختلف المصادر والمراجع فأخبروه أنه فقد منهم حيث لم تكن توجد إلا تلك النسخة التي قدمها

لهم الشاعر الكبير فأضاعوها نكاية في خصمهم اللدود !

ولن أدخل الآن في تفاصيل هذه المؤامرة التي راح ضحيتها ديوان أحمد فتحي ، والذي دارت العديد من الأقاويل والشائعات حول أسباب اختفاء هذا الديوان المنحوس حيث شكك البعض في ضياعه ، واتهم البعض الآخر أحدهم بسرقته إما استثاراً بنشره فيما بعد وإما لحساب أحد الشعراء العرب الميسورين الذي سبق وانتحل عشرات القصائد لأحمد فتحي وأصدرها باسمه لقاء بضعة دينارات لا تسمن ولا تغني من جوع ، وهذه حكاية أخرى لا مجال لنشر تفاصيلها في هذا الحيز .

ونعود إلى حكايتي مع شعر أحمد فتحي حيث تعرفت على المزيد من المعلومات عنه من خلال كتاب شاعرنا الكبير صالح جودت عنه والذي أصدره في ديسمبر سنة ١٩٧٣ كتاب الهلال تحت عنوان «شاعر الكرنك أحمد فتحي» حياته و«شعره» ، فبدأت أبحث عن ديوانه الوحيد وكل ما يتعلق بتراثه الشعري المجهول والاستزادة من أسرار حياته الخاصة .

وقد سبق وزودني الشاعر صالح جودت عام بهاتف الشيخ محمد إبراهيم سليمان الأخ غير الشقيق لأحمد فتحي الذي التقيت به في منزله في ١١ يونيه عام ١٩٧١ واكتشفت من خلال حواري معه بحكم تكوينه الديني ودراسته في الأزهر الشريف عدم رضاه عن سيرة أخيه وعن شعره العاطفي لكنني استطعت الحصول منه على بعض المعلومات عن نشأة أخيه الراحل ومراحل طفولته.

ومن خلال اقترابي من الشاعر الكبير صالح جودت تعرفت خلال عام ١٩٧٤ على المحامي الأديب أنور أحمد الذي كان يتردد على صديقه صالح جودت بمكتبه بالمجلة ، وبالمناسبة فقد قام بدور الزعيم مصطفى كامل في فيلم سينمائي مصري يحمل هذا الاسم .

وأدرك أنور أحمد شغفي بكل ما يتعلق بشعر أحمد فتحي ورغبتي في التعرف على المزيد من حياته خلال مراحلها المختلفة لإعداد دراسة عنه ، فوعدني بتزويدي ببعض المراسلات بينهما ، وبالفعل زرته بمنزله بجاردن سيتي بوسط

القاهرة وزودني بحوالي عشر رسائل بخط أحمد فتحي الدقيق المنمنم أرسلها له أحمد فتحي على فترات متباعدة في نهاية حقبة الثلاثينيات ومطالع الأربعينيات من القرن العشرين فيها الكثير من أسرار حياة أحمد فتحي العاطفية والإنسانية مما زودني بحصيلة ثرية من المعلومات دفعني لإصدار كتابي الأول عن أحمد فتحي تحت عنوان « اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي » الذي لم يصدر إلا في عام ١٩٨٧ عن وزارة الثقافة المصرية كشفت فيه الكثير من الجوانب المجهولة في حياته وشعره .

ثم طبعت على نفقتي الخاصة بعض المختارات الشعرية لأحمد فتحي عام ٢٠٠٧ لكنني اليوم آثرت أن أقدم الأعمال الشعرية الكاملة لشاعر الكرنك ، بعد أن حصلت على نسخة من ديوانه الأول «قال الشاعر» واستكملته بشعره المجهول المتناثر هنا وهناك في المجلات والصحف المصرية القديمة حيث غطيت فترة قصائده الأولى في مجلة أبو للو (١٩٣٣ ـ ١٩٣٤) ثم قصائده في مجلة الموظف (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩) ثم قصائده التي نشرها في سنواته الأخيرة في صحيفة الأهرام خلال عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٠ بما في ذلك قصيدته «قصة الأمس» التي شدت بها كوكب الشرق أم كلثوم فجلبت للشاعر شهرة واسعة يومئذ عوضت تواريه عن الأضواء ، ونسيان الناس له .

وقد حرصت وأنا أقدم شعر شاعر الكرنك ، أحمد فتحي وديوانه وقصائده المجهولة أن قدم أيضًا غنائياته المجهولة التي قام بتلحينها صديقه الموسيقار رياض السنباطي (١٩٠٦ ـ ١٩٨١) الذي لحن وغنى العديد من قصائد أحمد فتحي أشهرها قصيدته «فجر» التي لحنها رياض السنباطي وغناها بصوته الشجي عام ١٩٤١ ومطلعها :

كل شيء راقص البهجة حولي هاهنا
أيها الساقي بما شئت اسقنا ، ثم اسقنا
واملأ الدنيا غناء وبهاء وسنا

كما لحن العديد من قصائده ومنها «حديث عينين» غناء أسمهان سنة ١٩٣٨ ، ومطلعها :

يـا لعينيـك ويـالي مـن تـسابيح خيـالي
فيهما ذكري من الحب ومن سهد الليالي
عـبرات الأمـل المسحور في دنيـا الجـمال
وشحوب من ضنى اللوعة والسقم بدا لي

كما تغنى الموسيقار رياض السنباطي أيضًا بأجمل قصائد أحمد فتحي ومنها «النيل مجد الزمن» وعلى ضفاف النيل وذلك خلال الفترة بين عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤٣ بجانب قصائده الأخرى التي تغنت بها لور داكاش والمطرب السكندري جلال حرب والمطربة رجاء عبده والمطربة حياة محمد بخلاف أزجاله باللهجة العامية التي تغني بها بعض المطربين والمطربات .

والأمر الذي يدعو للأسف والدهشة معًا أن معظم هذه الأغنيات النادرة لم تعد تذاع ولا يعرف المستمع المتذوق مصيرها مما يدعو للتساؤل : هل ما زالت هذه الأغنيات مسجلة على شرائط ؟ أمر هل فقدت أو ضاعت كما ضاع الكثير من تراثنا الأدبي والفني وطوته يد النسيان .

والأمل كل الأمل أن نجد بعض هذا التراث لدى أسرة الموسيقار الكبير رياض السنباطي ، لعله قد احتفظ بها قبل أن تتعرض للضياع والنسيان قبل رحيله .

◆◆◆

حرصت في هذا الكتاب أن أقدم لمحات من حياة أحمد فتحي وشعره لشاعر لم يعد يذكره الناس إلا من خلال غنائياته الشهيرة النادرة «فجر» و «الكرنك» و«قصة الأمس» لأساطين التلحين والغناء والطرب في مصر والعالم العربي : رياض السنباطي ، ومحمد عبد الوهاب ، وأم كلثوم » أما القصيدة التي تغنت بها أسمهان «يا لعينيك ويالي» فلم نعد نسمعها على الإطلاق كما أن شعر أحمد فتحي لم يعد متاحًا للنقاد والدارسين فأغفل اسمه وشعره في الدراسات الأدبية والنقدية التي تناولت معظم إبداعات أعلام الشعر العربي المعاصر ، فأصبح نسيًا منسيًا رغم شعره الوجداني الرصين ، ورغم شعره الغنائي الذي يمثل

علامة مهمة في مسيرة الغناء العربي المعاصر في القرن العشرين .

◆◆◆

واليوم ، ونحن نقدم في هذا الكتاب حياة شاعر الكرنك وشعره وقصائده المجهولة ، بما في ذلك غنائياته المجهولة ، فإنما نقدم صفحة مضيئة من صفحات تاريخنا الأدبي المعاصر لشاعر كبير طوته يد الإهمال والنسيان منذ رحيله قبل نصف قرن من الزمان فليكن هذا الكتاب تذكيرًا بصفحة مضيئة من صفحات شعرنا العربي المعاصر ، بإلقاء الضوء على مسيرته الحياتية والشعرية منذ مولده في الحادي عشر من أغسطس عام ١٩١٢ حتى رحيله عن الحياة في الثالث من يوليو عام ١٩٦٠ وفاء للأدب والتاريخ .

القاهرة أغسطس ٢٠١١

محمد رضوان

ميلاد شاعر

كان ذلك في حوالي عام ١٧٩٠م تقريبًا حين هاجرت أسرة «فايد» من «نجد» بالحجاز وحطت رحالها أولاً في قرية «تل مشتول» بمديرية الشرقية ولكن اختلفت أسرة فايد مع سكان «تل مشتول» الأصليين فقامت بينهما معارك طاحنة انتهت بانتقال أسرة فايد إلى موضع يقال له «كفر الحمام» ونصبوا خيامهم هناك ثم عمروها وبنوا البيوت والدور .

واتجهت الأسرة إلى تعليم أبنائها في الأزهر الشريف ..

وكانوا يملكون موهبة قول الشعر على السجية ..

وفي هذه القرية نشأ الشيخ إبراهيم سليمان وقد أتم تعليمه بالأزهر وأصبح من علماء الأزهر يدرس في المعاهد الدينية .. وكان شيخًا مثقفًا ورعًا ينظم الشعر ويلقيه ..

وعندما اشتعلت ثورة ١٩١٩ شارك بمنظوماته وخطبه في إشعال نيران الثورة وطفق يعقد الاجتماعات الوطنية الملتهبة وقد زج به في السجن وتعرض بيته لغارات الشرطة عدة مرات ..

وكان الشيخ إبراهيم قد تزوج وهو طالب ، وأنجب ولدًا واحدًا هو الشيخ محمد ، وبعد أن توفت زوجته تعددت زيجاته حتى تزوج السيدة «فاطمة حسن العويضي» ، وهي بنت عمدة بلدة «فراشة» ناحية (أبو كبير) بالشرقية فأنجب منها أول ما أنجب شاعرنا أحمد فتحي ثم ثلاث بنات هن : عفاف ، وعواطف ، وعنايات [1] .

(١) أخبرني بهذه المعلومات فضيلة الشيخ محمد إبراهيم سليمان وهو أخ غير شقيق لشاعرنا أحمد فتحي في لقاء يوم ١١ يونية عام ١٩٧١م بمنزله في ضاحية «دير الملاك» بالقاهرة .

ولد فتحي إبراهيم سليمان بقرية كفر الحمام بمحافظة الشرقية في الحادي عشر من أغسطس عام ١٩١٢ م .

وكان طفلاً وسيمًا أزرق العينين متوسط القامة يشبه والده ، وقد ورث زرقة عينيه عن والده..

وبعد مولد أحمد فتحي انتقلت الأسرة إلى الإسكندرية بحي «الجمرك» حيث كان أبوه يعمل مدرسًا بالمعهد الديني بالإسكندرية ..

وألحق أحمد فتحي بالكتاب حيث حفظ القرآن الكريم وجوده ...

ثم ما لبثت الأسرة أن انتقلت للقاهرة حيث عمل الأدب مدرسًا بجامعة الأزهر ، وألحق أحمد فتحي بمدرسة العقادين الابتدائية وأقامت الأسرة بشارع حيدان الموصلي قسم الدرب الأحمر بحي الأزهر ..

وأظهر أحمد فتحي تفوقًا ملحوظًا على أقرانه خاصة في اللغة العربية واللغة الإنجليزية وظهر ميله الشديد إلى القراءة ..

وكان يحلو له أن يسهر بجوار أبيه وهو يقرأ حتى منتصف الليل ، يتطلع إليه في صمت ثم يحاول قراءة الكتب التي تحويها مكتبة الأب ، وكانت المكتبة تضم أمهات الكتب في الأدب العربي والتراث العربي مثل: دواوين المتنبي ، وأبي العلاء ، والشريف الرَّضِي ، وأمير الشعراء أحمد شوقي ، فضلاً عن الكتب الدينية والأدبية الأخرى مثل: كتاب الأغاني ، ومقامات الحريري .

وذات ليلة قرأ أحمد فتحي أبياتًا من الشعر في أحد الدواوين ، فنقلها ، وذهب لأبيه يقرؤها عليه، وكانت تقول :

ما مقامي بأرض نخلة إلا ... كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة تداركها الله ... غريب كصالح في ثمود

وحين سمعها الأب راح يشرح لابنه معانيها وعرف أحمد فتحي أن صاحبها شاعر كبير اسمه «المتنبي» وأعجب أحمد فتحي بهذا الشاعر ، فعاد إلى مكتبة أبيه من جديد وراح يقرأ كل ما كتب عن المتنبي وما نظمه هذا الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

ثم اتسعت قراءاته لتشمل دواوين البحتري والشريف الرضي وشوقي وحفظ الكثير من القصائد المطولة واستوقفه بصفة خاصة شعر شوقي ، لما فيه من قوة المعنى وحلاوة الجرس ، وجمال الموسيقا .

ثم أنجز شاعرنا دراسته الابتدائية والتحق بالمدرسة الثانوية ولكنه تعثر فيها لأنه انغمس في تلك السن المبكرة في مغامرات عاطفية جامحة وتأرجحت حياته بين شيطان الحياة وشيطان الشعر.

فالتحق شاعرنا بمدرسة الفنون التطبيقية (الفنون والصنائع) التابعة لجمعية العروة الوثقى بالإسكندرية .

ويتحدث عن تأثير الإسكندرية في حياته وفى شعره فيقول [1] :

« وفي الإسكندرية كان ميلادي وعلى صدر شاطئها الجميل ترعرعت ، وعن صفاء ، بحرها الصداح أخذت ما كان في بواكير أفكاري وأشعاري من صفاء وأنغام .

وماتت أم شاعرنا عام ١٩٢٣ ، وعمره يومئذ عشرة أعوام فقط أثناء دراسته الابتدائية ماتت ، وبعد أن وضعت مولوداً سموه «محمودًا» وأصابتها « حمى النفاس» ، وكانت في ذلك الحين داء عضالا وأخطأ الأطباء ، وأصابت الأقدار ، ولم يكن عمرها يوم اختارها الله لجواره قد تجاوز ثلاثين ربيعاً ، وقد خلفت وراءها أربعة أطفال كان شاعرنا أكبرهم ، وكان في العاشرة من عمره وكانت الفجيعة كبيرة فيها ...

شبابها الذي اختضر وأطفالها الأربعة الذين حرموا حنان الأمومة ورعايتها قبل أن يشبوا عن الطوق ، فشعر بحزن عميق فتزوج والده بسيدة من أقاربه كانت غاية في الرفق ، وحسن المعاملة لأحمد فتحي وشقيقاته الثلاث ولكن الفراغ الذي تركته أمه في صدره راح يبحث عن عواطف جديدة .

وفي تلك الحقبة بدأ شاعرنا ينظم قصائد وجدانية يبث فيها بوح قلبه وأشواق روحه ويعبر فيها عن عواطفه الجياشة لمن يحب ...

(١) صحيفة الشعب / القاهرة / ١٧ أغسطس ١٩٥٧.

واتسمت تلك القصائد بالرقة والعذوبة والطلاوة...

واشتد المرض بالشيخ إبراهيم سليمان فانتقل إلى مسقط رأسه كفر الحمام حيث توفى بها عام ١٩٢٩ ، تاركًا ابنه أحمد فتحي وهو في السادسة عشرة من عمره ، الذي فجع بيتيمه وهو ما زال في عمر الزهور ، فازدادت أحزانه ، بعد أن أصبح وحيدًا فمضى ينظم قصائد حزينة باكية عكس فيها أحزان روحه وأحزان نفسه وإحساسه الحاد بالاغتراب الروحي .

وتخرج أحمد فتحي في مدرسة الفنون التطبيقية عام ١٩٣٠ م وعينه خاله المهندس أحمد حسن «مدير جمرك الإسكندرية» موظفًا بالجمرك وشهدت له مغاني الإسكندرية صولات وجولات سجلها في قصائد عاطفية رقيقة ، ولم يستمر طويلاً في هذا العمل فعمل مدرسًا بمدرسة الصناعات ببولاق بالقاهرة ثم مدرسًا بمدرسة الصناعات بالسويس حوالي عام ١٩٣٢ م .

وفي السويس كانت له أيضًا تجارب ومغامرات عاطفية ، فقد كان دومًا يعشق الحسن ويهفو للجمال .

◆◆◆

مع جماعة أبو للو

ومن السويس بدأ يراسل مجلة « أبو للو » ..

ونشرت له عدة قصائد رقيقة غلب عليها الطابع الرومانسي الحالم الذي يغلف أحلامه بأحزان روحية شفافة ، وغليت على تلك القصائد في تلك الحقبة الروح الشاكي الحزين وأفصحت عن نفسية قلقة حزينة لشاب لم يتعد العشرين من عمره بعد ... فقد كان إحساسه بالاغتراب الروحي يلازمه منذ مطالع شبابه، لقد كان طموحه أكبر من إمكاناته وآماله أكبر من واقعه.

ولعل مفتاح شخصيته في تلك الحقبة والذي ظل ملازما له طيلة حياته يتلخص في إحساسه «بالاغتراب الروحي » الذي كان يضنيه ويعذبه...

وكانت أول قصيدة نشرها بمجلة «أبو للو» وكان يبلغ العشرين يومها

قصيدة يبث فيها أحزان روحه وآلام نفسه لأبيه الراحل بعنوان «نجوى وشكاة» وهي قصيدة تتسم بالروح الشاكي الحزين والنغمة الباكية الهامسة رغم شبابه الغض يقول فيها[1] :

أبي قُـم ونـحِّ الـرَّجم عنـك ونـاجني
أتـسلمني للـدهر وهـو خـؤونُ ؟
مـضى بالـذي خلّفـتَ لي ثـم فـاتني
وقلبـي ثخـينٌ بـالجراح طعـينُ
بـه مـن لظـى وجـدي عليـك لـواعجٌ
تـضرم نيرانـاً بـه وشـجون
ولـولا جـلالُ المـوت قلـتُ نـسيتني
وألهتـك عنـي في الحيـاة شـؤونُ

◆◆◆

تمثّلـت في ذهنـي فأجفـل خـاطري
وعهـدي بـه في النّـازلات رصـينُ
ومـاذاك مـن خـوفي لقـاك وإنـما
عـراني مـن هـول المقـام جنـون
حنانيـك ، هـل تبكـي لحـالي رحمـةً
أعنـدك مـاذا في غـد سـيكون ؟
لعـل زمانـاً أوثـق العهـد إنـه
سـيقلب لي ظهـر المجـنِّ يمـينُ
فـنم واسـترح واهـدأ بقـبرك إنـما
حُظـوظ البرايـا شـمالٌ ويمـين

(١) أبو للو / أكتوبر ١٩٣٣م / ص :١٠١ .

ولـــو أنـــه يبقـــى عـــلى امـــرئ
فمـــثلى بإبقـــاء الزَّمـــان قمـــين

◆◆◆

ألا أيهـــا المـــوتُ الـــزؤام مُعَجِّـــلاً
يناديـــك ، ميعـــادي متـــى ســـيحين
صريـــع همـــوم طـــال بالوجـــد عهـــدهُ
تمـــرُّ بـــه الـــساعات وهـــى ســـنين
فتخـشى ويـستجديك مـن فـرط مـا بـه
وأنـــتَ عليـــه يـــا حِمَـــام ضُـــنينُ!

◆◆◆

ثم ينشر قصيدة في عدد أكتوبر عام ١٩٣٤م بعنوان «الوهم» بتوقيع أحمد فتحي المهندس يغلب عليها الطابع الشاكي الحزين الباكي رغم شبابه الغض نلمس فيها سوداوية قاتمة وأحزان قلب كبير لا تناسب سنه الصغيرة التي لم تتجاوز العشرين بعد يقول في تلك القصيدة [1] :

أمـــن الأشـــجان آلَ وصـــحابْ ... ومِـــنَ الـــدَّمْعِ نـــدَامَى وشِرابْ ؟!
وكـــذا الـــدُّنيا شَـــجونٌ لا تَنـــى ... ودُمـــوعٌ لايـنـي عَنْهَـــا انـــسكابْ
لا أرَى في الـــرَّوْضِ إلاَ صـــادحاً ... مُرْسِـــلَ الألحـــانِ يحـــدُوهُ انتحـــابْ
أيَّ وَهـــمٍ لم يَـــزَلْ يَحْفِزُنَـــا ... فعـــلى الـــوهمِ صِرَاعٌ وَغِـــلاَبْ ؟!
كـــم سَـــحَابٍ لَمْ يَجُـــدْنَا غَيْثَـــهُ ... خطـفَ الأبـصارَ بـالبَرْقِ وغـابْ !

◆◆◆

وكـــلامٍ نَحْتَـــهُ رِيـــشتْ قَنًـــى ... هُـــوَ في ظـــاهِرِهِ شَـــهدٌ مُـــذابْ
والـــذي نَحْـــسَبُهُ ريَّ الـــصَّدَى ... هُـوَ مَهـما قـد روي الـصادي سَراب

(١) أبو للو / أكتوبر ١٩٣٤م / ص : ٢٣٨ - ٢٣٩ .

أيُّهـــذا المـــدلج الـــساري إلى
أمـــل يجـــدوه أقـــصر في الطـــلاب
أإلى الآمـــال كـــدحٌ قاتـــلٌ
وإلى الآمـــال ظعـــنٌ واغـــتراب ؟
مـــا أراهـــا باعثـــاتٍ مـــن بـــلَى
أو مُعيـــداتٍ إلى الـــشيبِ الـــشبابْ
صـــاحب الحاجـــة ذو هـــمٍّ بهـــا
فـــإذا أدركهـــا هـــان المـــصاب
ضـــيعةٌ للـــرأى تُـــذكي نارهـــا
آفنـــةٌ في المـــرء مُـــذْ شـــبَّ وشـــابْ
شـــامخٌ بـــالأنفِ مـــن أوهامـــهِ
لم يـــزل ينـــشدُ أطبـــاقَ الـــسحاب
حـــسب الكـــون رهينـــاً بالـــذي
يـــشتهي وهـــو رهـــينٌ بكتـــاب

◆◆◆

كانت قصائد أحمد فتحي في تلك الحقبة وهو ما زال في سن العشرين تعد إرهاصات لمولد شاعر وجداني كبير .

ليالي الكرنك

وبعد عمله بمدينة السويس انتقل إلى الأقصر مدينة التاريخ العريق والآثار الخالدة ، ليعمل مدرساً بمدرستها الصناعية الثانوية .

وفي هذه المدينة الصامتة الهادئة التي يخيم عليها جلال التاريخ التليد ، صمته وهيبته ، أحس بفراغ موحش وملل قاتل وهو الشاعر الطروب المرح الذي تعود أن يقضي أيامه بين مجالي الأنس والطرب وأطايب الجمال هرباً من عذابه الروحي الممض وشعوره الحاد بالاغتراب الروحي .

ويشعر بالحنين إلى أضواء القاهرة وليالي القاهرة ، فيكتب إلي صديقه أنور أحمد بعد ثمانية أيام فقط من وصوله للأقصر يبثه ضيقه وحزنه لبعده عن أجواء القاهرة وليالها الساحرة ، فيقول[1] :

« تصور أنني أنفقت هنا أياما ثمانية ، كانت في حساب قلبي أعواماً ثمانية» .

« لو أنك رأيتني الآن لأنكرتني : شحوب وذهول ، وعبرات لا ترقأ وكفاتها أبداً ، وظلال من الذكريات الغائمة لا تميل عن المخيلة المكدودة .

« لقد أقفرت كل دنياي من مباهجها ، وهل شيء أبعد أثراً في نفس الشاعر من أن يصبح وحيه أحجاراً جاثمة وأطلالاً قائمة ، وهذه الأناشيد الحزينة التي تفلسف الأحزان وتجعل من الوحدة المكتئبة ضجيج مهرجان وصخب أعياد وقدس مثول في حضرة آلهة السماء ...

« لو كنت في القاهرة ...

« يرحم الله أيامي بالقاهرة ، أو رحمني بعدها » .

كانت هذه أحاسيس شاعرنا في الأيام الأولى لوصوله إلى الأقصر ...

ولكن سرعان ما تبدل الوضع بصورة مختلفة ..

---

(١) من رسالة خاصة ضمن عدة رسائل اطلعت عليها عند صديقه أنور أحمد عام ١٩٧٤ .

كان شاعرنا يقضي جل وقته - في الليل - بين معابد الأقصر الخالدة ، وكان يحلو له ذلك أثناء الليالي المقمرة ، أن يتأمل جلال التاريخ وجمال الطبيعة ويسرح بعيداً في سموات الخيال ..

وسرعان ما أصبح يهفو إلى ليالي الكرنك يتأمل ويستوحي ويستلهم أجمل الخواطر وأعذب الصور ..

وفي ذات ليلة من تلك الليالي الشاعرية الحالمة كان القمر مضيئاً ينشر أشعته الفضية على المعابد الضخمة فيضفي عليها سحراً وبريقاً ، استوحى شاعرنا أروع قصائده الوصفية التصويرية «أنشودة الكرنك» .

التي يقول مطلعها [1] :

حلـــمٌ لاح لعـــين الـــساهر
وتهـــادىَ في خيـــالٍ عـــابرِ
وهفـــا ، مـــلء ســـكون الخـــاطر
يـــصل المـــاضي بـــيمّن الحـــاضر

ثم يسرح بعيداً إلى جلال التاريخ وأمجاده حيث ملوك الفراعنة وأمجادهم الغابرة التليدة وتوحي كل هذه الأحاسيس والخواطر بصور شعرية رائعة :

هـــا هنـــا الـــوادي ، وكـــم مـــن ملـــك
صـــارع الـــدهر بظـــل الكرنـــك
وادعـــا يرقـــب مـــسرى الفلـــك
وهـــو يـــستحيي جـــلال الغـــابر

ثم يمضي يساءل الأطلال في حيرة ونشوة في آن واحد :

أيـــن يـــا أطـــلال جنـــد الغالـــب ؟
أيـــن آمـــون ، وصـــوت الراهـــب ؟
وصـــلاة الـــشمس ، وهمـــى طـــا ربي

(١) ديوان قال الشاعر / ص ١٢٣ - ١٢٥ / أحمد فتحي ١٩٤٩ م ، القاهرة - دار النيل للطباعة .

نـــشوةً ، تـــزري بكـــرم العـــاصر

وتستغرقه النشوة بعد أن روض روحه على التصوف بين معابد الكرنك الخالدة تحت ضوء القمر وبين جلال المعابد وصور التاريخ الفرعوني التليد تحيط به من كل جانب :

أنـــا هـــيان ويـــا طـــول هيـــامى
صـــور المـــاضى ورائـــى، وأمـــامى
هـــى ، زهـــرى وغنـــائى ، ومـــدامى
وهـــى في حلمـــى جنـــاح الطـــائر

ويصور لنا في هذا المقطع التصويري الرائع الطائر الجريح الذي ما زال يغرد أعذب النغم وأرقه بين الرياض الناضرة :

ذلـــك الطـــائر مخـــضوب الجنـــاح
يـــسعد الليـــل بآيـــات الـــصباح
ويغنـــــى في غـــــدو ورواح
بـــين أغـــصان وورد نـــاضر

ثم يختتم أنشودة الكرنك بهذا المقطع الجميل ، فيقول :

في ريـــاض نـــضَّر الله ثراهـــا
وســـقى مـــن كـــرم النيـــل رُباهـــا
ومـــشى الفجـــر إليهـــا ، فطواهـــا
بـــين أفـــراح الـــضياء الغـــامر

وتغنى محمد عبد الوهاب بأنشودة الكرنك عام ١٩٤١م فلاقت نجاحاً كبيراً واتسعت شهرة الشاعر وأضفت عليه صيتاً ذائعاً ، وهكذا اقتران اسم الكرنك بأحمد فتحي ، وأصبح الناس يعرفونه باسم «شاعر الكرنك» .

وبالمناسبة لم يتقاض الشاعر عن هذه الأنشودة الناجحة إلا ثلاثة جنيهات من الإذاعة المصرية حينئذ ...

❖ ❖ ❖

وهكذا روض شاعرنا روحه على التصوف بين معابد الأقصر الخالدة وأصبحت أجمل أوقات حياته تلك التي كان يقضيها بين المعابد الشامخة : فاستوحى أنشودة الكرنك من معابد الكرنك .. واستوحى أنشودة «نداء الغروب» من وحي «وادي الملوك» وهي قصيدة تتسم بالصور الشعرية المحلقة والخيال الغني المجنح ، يقول فيها [1] :

عادت الطير إلى أغصانها .. تتغنَّى
حين ذاب النور في ألحانها .. وتثنَّى

◆◆◆

وجرى في أدمع الذكرى شراعي
مُذْ دعاه من فم الأجيال داع

◆◆◆

وكسا النيل وشاحُ الذهبِ
في الأصيلِ
وروي الموجُ حديثَ الحقبِ
للنخيلِ

◆◆◆

طاف بي همس بعيد كالنداءِ
أيها الساري على غير اهتداء
قف تأمل
هاهنا وادي الخلودْ
وتمهل
كلُّ من فيه رقودْ

◆◆◆

(١) ديوان قال الشاعر ، نداء الغروب ، ص : ١٣٧ ، ط دار النيل للطباعة القاهرة ١٩٤٩ .

لا تنبِّـــه أعينـــاً طـــال كراهـــا
ســحرها صـــان عـــلى الـــدهر حماهـــا

◆◆◆

أيـــن منـــك الفـــنُّ والمجـــد العريـــقُ
قـــــف تمهـــــل
فـــسحةٌ مـــن أمـــل الـــوادي وضـــيقُ
فتأمـــــــــــــل

◆◆◆

ســـأل الرمـــل ، وقالـــت زهـــراتُ
أيُّ ســـار ســـبقته العـــبراتُ ؟

◆◆◆

أنـــا صـــدّاحك يـــا وادي الجـــلال
نَـــــمْ ودعنـــــي
أبـــصر الـــدنيا بقلبـــي وخيـــالي
فـــــــــأغني

◆◆◆

أخـــذتني وحـــشةُ الـــساري الغريـــب
وتنبهـــتُ عـــلى صـــمتِ الغـــروب

◆◆◆

وتمهلـــــتُ ، لعـــــلي أســـــمعُ
رجعـــــة الهمـــــس البعيـــــد

◆◆◆

وتأملـــــتُ ، وعينـــــي تـــــدمع
صـــــور العهـــــد العهيـــــد

وجـــرى في أدمـــع الـــذكرى شراعـــي

❖ ❖ ❖

وحاول شاعرنا أن تغني أم كلثوم هذه الأنشودة الرائعة ولكنه أخفق في محاولته .

❖ ❖ ❖

وكان هناك عامل جديد حبب لشاعرنا الإقامة في الأقصر في تلك الحقبة بعد أن روض روحه على التصوف بين معابدها الخالدة ..

لقد مر بتجربة عاطفية عنيفة انتهت بالفراق .. فلجأ إلى الأقصر «منفاه المحبب» من القاهرة لينسى جراح قلبه وفرق أحزانه بين معابد الأقصر ولياليها الحالمة ..

ويصور شاعرنا أحاسيسه بعد هذه التجربة العاصفة ، فيقول في رسالة شجية له [1] :

« ولقد رجعت إلى منفاي مختاراً طائعاً لا ألوي في طريقي على شيء وعكفت على مكتبي أنفق فيه سحابة النهار وشطراً من الليل ، كما أفعل الآن .

« وماذا أصنع بهذه الصورة التي تطارد ذهني في اليقظة والكرى ؟

« وماذا أفعل بهذا الخافق الوثاب الذي لا يقر ولا يهدأ ؟

« وماذا أفعل بهذه الذكريات الموجعة التي تحف ظلالها بطريقي على الدوام؟

«ولمن أشكو هذا كله ، وأنا إنسان وحيد في هذه الدنيا ، مثلي كمثل الشجرة اليانعة النابتة في جوف صحراء جديبة موحشة مقفرة من كل كائن حي ؟

❖ ❖ ❖

ثم انتهت مرحلة الأقصر لتبدأ مرحلة جديدة في حياة شاعرنا وشعره هي مرحلة الفيوم ...

❖ ❖ ❖

(١) تاريخ هذه الرسالة ٩ سبتمبر عام ١٩٤١م ، وقد اطلعت عليها عند الأديب أنور أحمد .

في جنة الفيوم

أخذ شاعرنا يسعى لينقل إلى القاهرة ..

وأخيراً أفلح في أن ينقل إلى الفيوم - وهي قريبة من القاهرة - مدرساً بمدرستها الصناعية في سبتمبر عام ١٩٤١م ..

وعاش شاعرنا بين جمال طبيعتها وسحرها حيث النخيل والسواقي السبع تحوطها عيون «السليين» وعيون «الفديمين» و «الحدائق المعلقة» و «بحيرة قارون» .

ويسعد شاعرنا بقربه من القاهرة وتبهجه طبيعة الفيوم الساحرة فيكتب إلى صديقه أنور أحمد يقول له :

« والسواقي تكاد تطغي على نداءات خواطري وأنا أكتب لك ، ومع هذا فإنه لنواح حبيب .. يا ليتني أستطيع أن أسجله في أبيات كما سجله رامي في قصائد ...

« إنها بلدة طيبة وادعة جميلة .. ولكن ليس لها سحر وادي الملوك ، وجلال جواره الكريم» .

ويستوقفنا هنا حديثه عن سحر وادي الملوك وجلاله مما يفصح عن مدى استغراق شاعرنا في هذا الجو التاريخي الحالم في مرحلة الأقصر بعد أن كان يشكو مر الشكوى من إحساسه بالوحشة في ظلاله .

وقد استوحى أحمد فتحي من جمال الطبيعة في الفيوم وسحرها عدة قصائد رقيقة .

استوحى من وحي سواقي الفيوم قصيدته «صوت السنين» التي تتسم بجمال اللفظ ورقته وحسن صياغة الكلمات والموسيقا الهامسة فضلاً عن

رومانسيتها الحالمة المبدعة .. يقول فيها[1] :

أي سـحر بعثـت شـمسُ الأصـيل
في ضـياء شـاحب اللـون خجـول
ونـسيم واهـن الخطـو عليـل
راح يلتـفُّ بأعنـاق النخيـل

❖❖❖

ضـحك الزهـر ، وغنـى بلبـلُ
وحكـى المـوج ، وأصـغى الجـدولُ
وتـراءى في الـروابي أمـلُ
آخـر الأيـام فيـه أولُ

❖❖❖

آه مـن ذكـري مـع الليـل تعـودُ
هـي طيـفٌ ناحـل ، واهٍ ، بعيـدُ
يمـلأ الآفـاق ، والقلـب وحيـدُ
يبعـث النجـوى ويبـدي ويعيـدُ

❖❖❖

طـال حرمـاني وصـبري وحنينـي
وسـما بي خـاطري مـلء السـكون
أُرهـف السـمع إلى صـوت السـنين
هـائماً بـين فتـوني وذهـولي

(١) ديوان : قال الشاعر ، صوت السنين ص : ١١٥ .

يـــا خيـــالي هـــذه الـــدنيا لنـــا
لـــيس إلا أنـــت ، فيهـــا ، وأنـــا
نقهـــر الـــدهر ، ونطـــوي الزمنـــا
ونـــــرى في كـــــل واد وطنـــــا

◆◆◆

فـيم نـشكو العمـر والجـرح القـديما
والهـــوى اليـــائسُ واللوعـــةُ ، فـــيما ؟
نحـــن صـــوَّرنا مـــن الـــوهم نعـــيما
في ربيـــع باســـم ضـــاحٍ ، جمـــيلا

◆◆◆

ولعل انتقال شاعرنا إلى الفيوم كان بمثابة الواحة التي ينشد فيها الراحل المجد ، بعض الراحة من وعثاء الطريق ، ووقد الهجير ، وإنك لتحس برد الراحة الذي أظل نفسه من خلال شعر مطرب كانت موسيقاه تردده مع سواقي الغدير التي تترجم عن الحنين والنفس الملتاعة .

في قصيدته «صوت السنين» التي أوردناها ، نسمع منه لأول مرة نغماً مؤنساً، وأملاً نديا، وحناناً طوى مرارة دفينة ، واستقبل فجراً بساماً .

وكانت هذه المرحلة (١٩٤١ ـ ١٩٤٣م) رغم قصرها من أكثر الفترات استقراراً في حياة شاعرنا وأحفلها بالإنتاج الشعري الخصب الذي يتسم بالتفاؤل والرومانسية الحالمة والإقبال على الحياة ولكن هذه المرحلة لم تستمر طويلاً ، فسرعان ما بدأت مرحلة حاسمة في حياة شاعرنا القلق الملول !

الاغتراب الروحي

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة جديدة وفريدة في حياة شاعرنا ..

كان شاعرنا قلقاً دائماً حزيناً لا يستقر على حال يعذبه شعوره «بالاغتراب الروحي» فهو دائماً يشعر بغربة روحية موحشة .. لم يجد الاستقرار والأمان في المرأة أو الكأس أو المجد أو المال أو التنقل والسفر .

ويكتب لصديقه يعبر عن ضيقه وملله من خياله ويصور له أحاسيسه المرهفة نحو السعي إلى الجديد الذي ينفض عنه أثقال الكآبة ورتابة الملل ، فيعلن له زهده في القاهرة ولياليها ، فيقول:

«كرهت القاهرة .. وملت حياتي بها . إن كل ركن في العاصمة يثير دفيناً من الشجن ، ويهيج ساكناً من الذكرى ، ويرتد بالقلب المثخن بجراحه إلى صور من الماضي الحافل بآثامه ومباذله، الذي شاء القدر أن يضع له هذه الخاتمة الأليمة.

« فلأقنع راضياً أو غاضباً بهذه الحياة البليدة التي أحياها .

« هنا بعيداً عن مراتع شبابي المسكين .. ولعل البعد ينسى أو يسلي ، ولا أمل في حياة عاطفية مستقبلة ، بل لا رغبة في شيء من ذلك على وجه الإطلاق .

« لقد أحببت كثيراً وتعذبت كثيراً كما تقول مريم المجدلية ولا أظنني مستطيعاً أن أعالج حياة الشاعر من جديد ...

«ولهذا قر قراري على أن أودع هذا الفن العزيز فيما عدا نفثاتي السانحة على ماضي الفار ، الذي يعاودني كلما بسط المساء جناحه على روحي الهائمة في القفار والمجاهيل » .

كانت حياة أحمد فتحي في تلك الحقبة حياة تعسة شقية فضلاً عما كان يعاني من آلام نفسية تعذبه وتضنيه ...

وينتهي شاعرنا إلى قرار خطير يعد نقطة حاسمة في حياته ...

لقد قرر أن يستقيل من عمله ويغادر الوطن ، ليلتحق بالجيش البريطاني .

« ومهما يكن في قراره هذا من إغراب أو مروق ، فإن عوامل كثيرة قد اجتمعت على الشاعر المسكين ، فحملته على اتخاذ هذا القرار في ساعة يأس :

« حب ضائع ، وصحة منهارة ، وأمل مفقود في وظيفة بالقاهرة ، وسخط على الحياة والفن، وخصاصة تتركه في ضائقة من العيش ، وهو بين كل هذه العواطف وحيد .. لا زوجة ولا ولد ولا أهل [1] .

كانت الحرب العالمية الثانية قائمة في ذلك الحين ، فانضم شاعرنا لقوات الحلفاء وأخذ يندد بقوات المحور ويرحل إلى الميدان ويودع محبوبة العمر في الفيوم بقصيدة رقيقة يقول فيها [2] :

أغاريدُ من ذكرى هواكِ وأنغامُ
تعود ، فهل عادت ليالٍ وأيامُ ؟
هنا ... كان لي قلب وفيٌّ ومرتع
رضيٌّ ، وآمال حسانٌ وأحلامُ
وكان هوانا يملأ الرَّحب بهجةً
يصوِّرها في صفحة الكون رسام
تسابق فيكِ المغرمون ، وقُسمت
حظوظ ، فمظلوم لديك وظَلاَّم
تخلف قلبي في الزحام ، وخانني
إلى نبعك المورود صبرٌ وإقدامُ
أقابلك في ضعف الغريب بذلِّه

(١) صالح جودت ، مأساة شاعر الكرنك ، مجلة الهلال ، ديسمبر ١٩٦٦ .
(٢) أحمد فتحي ، ديوان قال الشاعر ، ١٩٤٩ ، قصيدة «الأيام» ، ص ١٤٣ .

أغالـــب دمعـــي وهـــو بالوجـــد نـــأم
لقيـــتُ الـــروابي ضـــاحكات ، كعهـــدها
كـــأن لم تَرُعْهـــا مِـــن غيابـــك آلام
وفي كـــلِّ شيء هامُنـــا منـــك فكـــرة
ومـــلء خيـــالي منـــك وحـــيٌ وإلهـــام
يخيَّـــــل لي أني أراك ، وأننـــــي
تـــصافح ســـمعي مـــن حـــديثك أنغـــام
فـــأغفو عـــلى وهـــم اللقـــاء ســـويعةً
وأصـــحو ، ومـــا بينـــي وبينـــك أعـــوام
هنيئـــاً لـــك الـــدنيا ، فـــإن خـــواطري
إذا هبطـــت آفـــاقَ دنيـــاك ، آثـــام
ومـــا دام في بعـــدي لقلبـــك راحـــة
فـــلا خطـــرت بي في رحابـــك أوهـــام

◆◆◆

ويصبح شاعرنا ضابطاً بقوات الحلفاء في الصحراء الغربية المصرية .. ولكن كيف حدث هذا؟

لا أحب أن أعرج على ما اضطرب فيه أحمد فتحي خلال تلك الحرب من تصرفات مبعثها فكر أضر به الحرمان الباكر في صدر حياته ، وأتلفه نهم للذاذات تورث السقم في الجسد وفي العقل، إلا برأي لا ينفي عنه العتب بقدر ما يبحث له عن مخرج يرى منه القارئ شعاعاً من العذر.

مما لا شك فيه أن أحمد فتحي تأثر من قراءاته في كتب الغرب ، بما كان يحدث لمن تتجهم له الدنيا حتى تضيق به أرجاؤها ، أو لمن يخفق في حب عنيف

لا يرى بعده حقاً له في العيش أو أملاً في أمل .. وكان أولئك المصابون بهذه المآسي ينخرطون في «الفرقة الأجنبية» التي كانت تؤلف في فرنسا من متطوعين من كافة الأجناس . لم يكن هم هؤلاء المتطوعين الدفاع عن قضية ، أو بلوغ غاية نبيلة أو مبدأ سام أو إحقاق حق ضائع بقدر ما كانوا ينخرطون في هذه الفرقة من أجل البحث عن الموت عن طريق آخر غير الانتحار . إن شاعرنا يلقى بنفسه الضوء على تلك الحقبة الغريبة من حياته في رسالة أدبية ممتعة بعث بها من «برقة» في ٢٠ مايو سنة ١٩٤٣م إلى صاحبه تفصح عن نفسية قلقة تحاول أن تجد في ميدان الحرب ملاذاً أو مهرباً من الشعور بالغربة الروحية وتفصح الرسالة عن مدى إحساسه الحاد بالقلق وعدم الاستقرار والغربة الروحية لشاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعد يقول فيها [1] :

« وبعد ، فإنك لتسأل ماذا حدا بهذا الشاعر المفتون أن يهجر داره إلى غير أمل في رجعة، ولقد كانت حياته في أرض الوطن هنية لينة ، إن أخطأها البذخ ، فقد كان فيها ترف ورخاء ؟

« وفي الحق أني لأسأل نفسي بمثل ذلك اليوم ، وإنها لتجيبني إجابة فيها غموض وإبهام ومراوغة .

« أنت تدري أنني رجل لا سبيل للمال إلى استمالته ... ولكن حدث أنني سعيت إلى الشهرة سعي المجد ، وطلبت المجد طلب الملحاح ، وبذلت في سبيل ذلك ما بذلت من نضرة شبابي ونور عيني .

« فلما بدأ نجمي يتألق في سماء المجتمع ، وأقبلت على الشهرة إقبال المشوق ، كان ما تبقى لي من نفسي ذماء لا يكاد ينتفع بالحياة في جملتها ولا في تفصيلها .

« فقدت نصف قلبي منذ ثلاثة أعوام ، وفقدت نصفه الباقي منذ أيام ...

« ولقد فزعت إلى الشراب من مواجعي وعذاب دنياي ، فما زادني إلا ضعفاً عن احتمال الحياة ، ومواجهة متاعبها ، وعادت علة الجسد تزيدني من يقظة جراح قلبي ، وأصبحت حياتي كلها مقاساة ونكراً .

---

(١) من رسالة خاصة لصديقه أنور أحمد .

« وتلفت حولي ، فإذا أنا .. ولا ناصر ولا معين .. وإذا بمثلي كمثل الكسرة من الخبز العفن ملقاة في عرض الطريق ، إن وجدت تقياً يرفعها إلى جانب الحائط ، فإنها لن تجد من يأكلها بأي حال.

« قلت لنفسي .. لعلنا نصطنع لنا وطناً جديداً ، وعملاً جديداً ، وآفاقاً جديدة ، يرتع في ظلالها الإحساس الجريح والخيال مهيض الجناح .

« ولعل تغيير الجو المحيط ، وتبديل الوسط وتجديد المعالم لعل ذلك كله أن يعين على طي صفحة الماضي بخيره وشره ، بل بشره وحسب ، فما كان فيه من خير قط.

« وفي بضعة أيام ، أبرمت الأمر ، وعقدت العزم على الرحيل ، لم أشاور أحداً ولم أستأنس برأي أحد ، وحضرت رحلي أطياف الشباب ، ورحلت وأنا لا أدري إلى أين ..

« ولست أدري حتى الساعة ماذا يراد بي ، فإن كان خيراً ، فقد أسلفت من الصبر والتجمل ما يثبت حقي أن أنعم بما بقي لي في صحبة الحياة من أمد .. « وإن كان شراً ، فقد : تعودت مس الضر حتى ألفته وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر » ، ويبعث لمحبوبته من الصحراء بقصيدة «همسات» التي يقول مطلعها :

أنا همس الحب في سمع الوجود ... فاسمعيني

كان هذا تحليل شاعرنا للظروف والعوامل النفسية التي دفعته إلى الزج بنفسه في أتون الحرب هرباً من قسوة الواقع ومرارة الهزيمة النفسية التي تعذبه وتضنيه ...

❖❖❖

وفي نفس الرسالة يشكو من هجر شيطان شعره الصادح في «برقة» بليبيا فيقول :

« ولكن شر ما أكابد الآن ، هو هجر شيطاني الصادح الذي طالما هششت إلى هزجاته بين تجهم أيامي وفي أمسياتها العابسة ، فما عدت أهتف ببيت من الشعر واحد ، ولا عاد يطرقني طيف من أطياف الخيال » .

ثم تمضي الليالي ممضة ثقيلة على شاعرنا وهو يتنقل مع قوات الجيش البريطاني في الصحراء الليبية وهناك يستطيع أن ينشئ علاقة عاطفية مع حسناء أوربية ، فيعود شيطان شعره الهارب ويستلهم منها قصيدة رقيقة بعنوان « الجارة الحسناء » يقول فيها :

أشرقـــتِ في ليـــل أراق ظلامـــه
في خـــاطري ، ليزيـــد فيـــه عـــذابي
فرأيـــتُ ثغـــرك ضـــاحكاً عـــن دُره
متألقـــاً في بـــشره الخـــلاب
وتبـــسمتْ روحـــي إليـــكِ ، وعادهـــا
طيـــفُ التغـــزل بعـــد طـــول غيـــاب
وشـــكا فـــؤادي ظلـــم مـــا حملتـــه
ليـــصون عهـــد أحبتـــي الغيـــاب
وجـــرت عـــلى شـــفتي ظـــلال تحيـــة
تـــسعى إليـــك بهمـــسة الإعجـــاب
فهتفـــت والـــذكرى يلـــم خيالهـــا
فـــيرد آثـــامي عـــلى الأعقـــاب
يـــا جـــارتي الحـــسناء ، مالـــك موضـــع
في القلـــب بعـــد تفـــرّق الأحبـــاب
في ناظريـــك مـــن الـــصبا وفتونـــه
يبـــدو ســـؤال ظـــامئ لجـــوابي
لكـــن مـــشغول الفـــؤاد يعـــوذ مـــن

سـحر العيـون بدمعـه المنـساب

ثم يتذكر محبوبته التي تركها في مصر فيقول :

لي في رُبى الوادي السعيد فريـدة
في حسنها ، تشتاق يوم إيابي
عندي لها باقي الوفاء ، وعندها
لهواي إعزاز وحسن ثواب
ولعلنا بعد النوى أن نلتقي
فتقرُّعين شبابها وشبابي

ويزداد إحساس شاعرنا «بالاغتراب الروحي» في الصحراء حيث الوحدة والسكون والتأمل والليالي الطويلة المسهدة ...

ويسترجع شريط حياته فيجدها باطل الأباطيل وقبض الريح وتنتابه سوداوية قاتمة وإحساس مظلم بكل أمل له في الاستقرار والحياة الهادئة وبقيمة ما يكتب ويسجل هذه الأحاسيس الحزينة في رسالة ، خاصة إلى صديقه أنور أحمد فيقول :

« لا أكتمك ما أحس من فقدان كل أمل في الحياة المنتظمة والاستقرار وأؤكد لك أن خيال العش الجميل والأليفة والأطفال لم يعد يداعب عيني أبداً .

« ولقد أصبحت رجلاً بلا ماض ولا مستقبل ، ولا رجاء في المستقبل .

« ولا تحسب هذا مصدر ألم لي فقد رضت نفسي عليه رياضة كافية ، وأصبحت أستمتع بالحياة الفردية الموحشة إلى غير حد ، وأصبح كل همي أن أركز كل جهدي في العمل الذي أكسب منه القوت .

«وفي وقت فراغي متسع أقفه على العمل الأدبي والإنتاج الفني ، وقد يشاء الله أن أظفر منهما بعد بعض الوقت بشيء تكون له قيمة تاريخية تذكر .. فمن يدري ؟ » .

وفي رسالة أخرى بتاريخ ١٥ أغسطس عام ١٩٤٣ يمضي شاعرنا فيسجل نفس أحاسيسه الحزينة القاتمة ، وكأنه يرثي نفسه في عنفوان الشباب وفتوة العمر، فيقول :

«منذ أيام قليلة ، ودعت عامي الثلاثين ، ودخلت في الحلقة الرابعة ، ولا أكذب عليك ، فإن خوفي من الشيخوخة الباردة العاجزة لا حد له ..

«وأخشى ما أخشاه أن تكون خطواتي في سبيل الفناء سريعة من حيث لا أشعر » .

ويقول في موضع آخر مصوراً أحزانه وآلامه :

« أجدني حقيقة ضائقاً بالزمان والمكان ، ويزيد المرض من حدة هذا الضيق.

« أذكرتني العيد .. ولا بأس من أن أقول لك أن حياتي لم يعد فيها مكان للأعياد ... وإذا أمكن استثناء الأفراح الصغيرة الهادئة التي يقيمها قلبي لآلهاته الجاحدات ، تستطيع أن تزعم أن كلمة العيد قد محيت من قاموس أيامي وليالي .

«وفي السقم والعلة والضعف ، يدرك رجل مثلي فداحة جرمه في حق نفسه، إذ آثر منذ زمن بعيد هذا النوع من الحبس الانفرادي الحافل بالشقاء ، بدلاً من سعادة الأسرة وفرحة الحياة بالعيش الهادئ ، والعصافير الصغيرة المغردة » .

كانت هذه خواطر شاعرنا الحزينة في قلب الصحراء حيث ألقى بنفسه في أتون الحرب لاجئاً إليها فراراً من عذابات نفسه وأحزان روحه علّه ينسى وترتاح نفسه لكن ذلك لم يزده إلا حزناً وضيقاً على ضيق .. وكانت هذه حلقة ترسم أبعاد مأساته العاصفة التي كان يتجه إليها بسرعة في عنفوان شبابه الغض.

ولعل أصدق ما يعبر عن إحساسه بالاغتراب الروحي من شعر قوله في قصيدة تفصح عن نفسية قلقة مفتاحها الاغتراب الروحي [1] :

ظمئتُ ، على قربي ، من النهل والعلّ

(١) مجلة الرسالة ، من وحي الصحراء ، ٢٧ يونيه ١٩٣٨ م .

فهل عاف عذبَ الورد ظمآن من قبلي؟
وضقتُ بليلى ، ساهداً ، ولو أنني
تعزيت لم أشك التسهد في ليلى
وغشَّت حياتي وحشة ليس ينتهي
مداها ، ودوني سائر الصحب والأهل

◆◆◆

هذه ملامح لأحزان شاعرنا منذ مطالع شبابه ندرك من خلالها مدى عمق المأساة التي عاشها أحمد فتحي من مولده حتى إلى يوم رحيله .. ومن هنا كانت مأساة حياته العاصفة .

على أنه بعد أن عمل ضابطاً بالقوات البريطانية في الصحراء الليبية إبان الحرب العالمية الثانية انتقل إلى جزيرة صقلية حيث عمل في قسم الدعاية والنشرات الحربية ...

ثم ما لبث إن عاد إلى القاهرة في أوائل عام ١٩٤٤ م وحاول أن يجد وظيفة مناسبة في القاهرة فأخفق ..

فلجأ إلى صاحبه محمد سعيد لطفي - مدير الإذاعة المصرية يومئذ - وقد كان على صلات طيبة بالإنجليز ، فتوسط للشاعر عندهم فعينوه مذيعاً بالإذاعة البريطانية بلندن ...

واستعد شاعرنا للسفر إلى لندن لتسلم مهام عمله الجديد .. لتبدأ مرحلة جديدة في حياته وفي شعره ...

ليالي لندن

عين أحمد فتحي بالإذاعة البريطانية بلندن مذيعاً ومترجماً للأخبار بالقسم العربي بها في أواخر شهر فبراير عام ١٩٤٤م .

وكانت لندن تعاني في تلك الحقبة من فترة مظلمة ظالمة تكاثرت فيها القنابل الطائرة على العاصمة البريطانية في عنفوان اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية .

ووسط ظلام لندن الحالك في تلك الحقبة المظلمة حاول أن يدفن أحزان روحه وآلام نفسه في الكأس والمرأة والسفر فأطلق لبوهيميته العنان وكان من أغرب نزوات شبابه في تلك الحقبة أنه تعلم الطيران في بقعة من أجمل بقاع الريف ، في جنوب انجلترا ونجا من الموت في محاولاته الأولى بأعاجيب غريبة ولم يحاول أن يقيد نفسه بمواعيد ثابتة أو بعمل معين ومرجع هذا كله إحساسه الحاد بالاغتراب الروحي والوحشة النفسية مما جعله ينطلق في بوهيميته وعدم التزامه بقيودها .

ويروي صديقه الشاعر صالح جودت صفحة مجهولة من حياة أحمد فتحي في تلك الحقبة فيقول [١] :

« على أن لندن قد حملته ذكرى ظل يدمع لها بقية حياته .. لقد أحب هناك أحب شابة إنجليزية اسمها «كارول» وهي من بنات الطبقة المتوسطة ، وكانت تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة ، وتزوجها، ورزق منها طفلة سماها «جوزفين» [٢] .

ولكن كان لشاعرنا نشاط خصب ومثمر في العاصمة الإنجليزية ، فبجانب صولاته وجولاته العاطفية كان له نشاطه الثقافي ..

في إذاعة لندن كان يقدم أحاديث أدبية وقام أثناء الحرب بترجمة خطب الزعيم البريطاني ونستون تشرشل .

---

(١) بلابل من الشرق ١٩٦٠ .

(٢) في بعض اعترافات شاعرنا أن اسمها عائشة وأن الزواج تم عام ١٩٤٥ م .

وفي إحدى رسائله يتحدث عن جانب من نشاطه ، فيقول [1] :

« عادوني النشاط الأدبي بعد أن استقر بي المقام ، وقد فرغت من سلسلة أحاديث عن رحلتي إلى الصحراء ، وبدأت سلسلة أخرى عن الشعراء المعاصرين » .

وفي رسالة لاحقة بتاريخ ٢٦ سبتمبر عام ١٩٤٤م يقول :

« بدأت كتابة مؤلف جديد عن لندن في زمن الحرب ، وربما استغرقني بضعة شهور، وقد بدأت أمس قصيدة غنائية وهي تبشر بشيء من طراز «الكرنك» وإن كان فيها روح أبيقوري ، ربما قاد إلى خاتمة بلون وطني » .

« ثم تأتي مأساة المآسي في حياة شاعرنا ..

تعود شاعرنا أن يفرط في الشراب ، فلا يكاد يفيق منه ، وهكذا لم يستطع أن ينهض بتكاليف الحياة الزوجية ، وجاءه النذير حينما رفضت السلطات الإنجليزية أن تجدد إقامته هناك ، فكان عليه أن يرحل ويترك زوجته وابنته خلف ظهره ويبحث عن أي مصير . كانت هذه مأساة المآسي في حياة أحمد فتحي.

وودع زوجته وابنته في لندن وهو يبكي وينشد بأسى:

إذا ضربتْ بيني وبينك فرقةٌ ... وطال عليّ الشوق، والشوق فاجعُ

وأقفرتْ الأكوان دوني فإنها ... خراب، وحتى الأقربين بلاقعُ

وأظلمتْ الدنيا وعُطِّل مسمعي ... فلا أنا بالرائي، ولا أنا سامعُ

فررتُ إلى كأسي أناجي حُبابها ... وقلبي خفاق، وطرفي دامعُ

واستقال شاعرنا من الإذاعة البريطانية في يونية عام ١٩٤٦ وعاد إلى مصر ولم يتح أن يرى ابنته إلا عام ١٩٥٥م لآخر مرة وبعد وفاته بفندق كارلتون بالقاهرة عام ١٩٦٠ م وجدت صورتها وهو يحتضنها بين يديه بحب وأمل ...

(١) تاريخ هذه الرسالة صيف عام ١٩٤٤م ، وهي من ضمن مجموعة رسائله لصديقه الأديب أنور أحمد ، أطلعني عليها كاملة.

في الأراضي المقدسة

أثناء وجود شاعرنا بلندن تعرف على الشاعر السعودي الرقيق الأمير عبد الله الفيصل صاحب ديوان «وحي الحرمان» وبعد أن عاد شاعرنا إلى مصر من لندن حوالي عام ١٩٤٧م بعد أن مكث بلندن لفترة بعد استقالته من دار الإذاعة البريطانية ذهب إلى الأراضي المقدسة حوالي عام ١٩٤٨م، وعين مراقباً عام للبرامج بإذاعتها، بمدينة جدة.

وكان له أثناء ذلك نشاط خصب، فكان يشارك بالبرامج الجديدة وإلقاء أجمل ألوان الشعر العربي قديمه وحديثه وغلب على الإذاعة الطابع الثقافي اللطيف وأحدث تجديدات كبيرة في برامج الإذاعة كما شارك في النهضة الأدبية بالسعودية ...

وفي تلك الحقبة كان يصطحبه صديقه الشاعر الأمير عبد الله الفيصل في رحلاته الصيفية بين مغاني أوربا وربوعها في باريس ولندن وروما وما لبث أن استقال من الإذاعة حوالي عام ١٩٤٩م واستمر يعمل بالمقاولات في الأراضي المقدسة وجلب له عمله الجديد بعض المال ...

وكانت لرحلات شاعرنا إلى مصايف أوربا وربوعها وشواطئها الفسيحة آثار عميقة في شعره فأمده بزاد وفير من المشاعر والأحاسيس عكسه في شعره وفي أدبه النثري فيما بعد ...

وكانت هذه الرحلات البلسم الذي داوى أحزان روحه لبعض الوقت بعد ليالي الحرمان والأحزان والوحشة.

ولكن سرعان ما عاد شاعرنا إلى مصر عام ١٩٥٣ م بعد أن ظل بضع سنوات في الأراضي المقدسة في بحبوحة من العيش والرفاهية ليبدأ فصلاً جديداً آخر في حياته الخصبة العريضة.

أحمد فتحي صحفياً

عاد شاعرنا إلى مصر في حوالي عام ١٩٥٣م ومعه بعض المال ولكنه كان مسرفاً ، فأنفقه عن آخره في فترة وجيزة ..

وظل يحرر في بعض المجلات والصحف ينشر فيها مقالات وقصصاً مترجمة قصيرة وبضع قصائد حتى ألحقه صلاح سالم بصحيفة «الشعب» ليحرر صفحتها الأدبية ... وبدأ أحمد فتحي يحرر فيها بابا أدبياً شيقاً تحت عنوان «سوانح وذكريات» ضمنه خواطره الفنية والأدبية والذاتية .. واتجه منذ حوالي عام ١٩٥٥م إلى الكتابة الأدبية وإلى النقد وإلى الحديث عن الكتب وما يصدر منها في مختلف شؤون الفكر والثقافة والفنون . وكان لتمكنه من اللغة الإنجليزية دور في ترجمة بعض المؤلفات إلى العربية ، منها كتاب «فن الحياة» ، كما أعانته على أن يطلع على آدابها وفنونها ويغترف منها ما شاء له حسن ذوقه ورقة مشاعره وولعه بالطريف في النقد والأدب .

وأخذ أحمد فتحي يحرر تلك الصفحة الأدبية في صحيفة «الشعب» وكانت نتاجاً لتجاربه وقراءاته ، وصدى لمعاناته التي لزمته طول حياته .

ولكل أديب بوجه عام ، ولكل شاعر بوجه خاص ، فكرة أساسية تتجلى في كل ما تجود به قريحته . فهي كالمركز المغناطيسي الذي تتجه إليه سائر أفكاره أو كمركز الدائرة الذي تتشعب منه جميع الأشعة في كل اتجاه .

وهذه القاعدة توشك أن تكون أزلية وعامة ، فمن شعراء الجمال في الغرب نجد بايرون وكيتس وشيللي ولامارتين ومن شعراء الطبيعة نرى بوشكين وورد ذورث الذي سموه «شاعر البحيرات» ومن شعراء الدراما شكسبير وراسين وكورني وفيكتور هيجو ، ومن شعراء الأدب المكشوف بودلير الذي أطلقوا عليه شاعر اللذة والألم ، وزعيم الرمزية وهو صاحب مجموعة قصائد «أزهار الشر» التي كانت السبب في وقوفه أمام القضاء بتهمة انتهاك حرمة الآداب

العامة .

ومن شعراء الوطنية في العالم طاغور ودانتزيو وكبلنج وفردريك شيللر وفولتير الذي مهد للثورة الفرنسية وكان يسمى « شرارة الثورات » .

ومهما يكن من أمر هذا التخصص ، فإن الشاعر لا تقيده قيود ، ولاتقف في سبيله حدود، ولكن المركز المغناطيسي الذي أشرنا إليه هو الذي يجذب أفكاره ولا يغيب أثره عنه مهما انشغل في شأن من الشئون ..

وقد عرب أحمد فتحي في تلك الحقبة (١٩٥٥ ـ ١٩٥٩) عشرات القصص الغربية القصيرة لكبار كتاب القصة القصيرة ..

كما كتب عشرات المقالات التي تملأ عدة كتب أدبية قيمة ..

ومن خواطره الأدبية التي سجلها في تلك الحقبة في بابه «سوانح وذكريات» تلك الخواطر الشيقة بعنوان « أمواج وأشعار ونظريات» كتبها في رحلة إلى الإسكندرية يقول فيها [1] :

« من أسوأ عاداتي أو أحسنها ... لا أدري ...

أنني لا أستطيع النوم في ساعة مبكرة ..

« وكان الليل قد انتصف منذ ساعة أو نحوها عندما انصرف عني الأخوان، وتركوني وحيداً...

« ووجدتها فرصة سانحة للتريض سيراً على القدمين ، والخلوة بصديقي العظيم ، القديم، البحر ...

«ومشيت ، ومشيت ، والأفكار تداعب صفحة ذهني كما تداعب أنسام الليل صفحة الأمواج.

« وطافت بي ذكريات في الماضي القريب والبعيد ... الشقي والسعيد ووقفت أتأمل أنوار الطريق في مرآة الخضم الزاخر ، الذي ألقى عليها الليل

(١) صحيفة الشعب ، ٢٤ أغسطس ١٩٥٧م .

وشاحه القاتم وتمتمت شفتاي دون قصد بقولي في وصف الصورة نفسها منذ سنين :

عـــلى المـــاء قلبـــي ، في نـــاره وفي المـــساء ألـــسنة مـــن لهـــب

« وامتد بصري إلى صفحة الماء ورأيت فيها ألسنة اللهب تتراقص ، كأنها عبارات مضطربة في سياق قصة حب خالد ...

« ثم نفذ بصري إلى حنايا ضلوعي : كان قلبي هناك : بلا نار ولا نور .. مجرد رماد بارد !..

« وضللت طريقي في زحام السنين ، والتي جرفني موكبها العامر أمام عين خيالي ، صورة بعد صورة ، وكلمة بعد كلمة ، وظلالا بعد أشعة ، وأصداء بعد أنغام .

« وودعت الليل الراحل إلى لقاء قريب ، ورحبت بالصباح الوافد لغير بقاء وقلت للبحر : هكذا حظك في الدنيا ، وحظي أنا ، ودوام الحال من المحال » .

وكتب تحت عنوان «الحساب الختامي» بمناسبة حلول عام جديد يقول [1] :

« لعل من أكبر مشكلاتي أنني أحب مناجاة أحداث الماضي ، أكثر مما أحب التطلع والتشوق ، إلى احتمالات أحداث المستقبل ، وأنني كثيراً ما أنسى نفسي ، بين غدي وأمسي .

« ومع اعترافي بخوفي من تعقيد الحياة ، وعزوفي الدائم عن وضع العثرات في طريق موكب أفكاري ، لا أجد مندوحة عن التساؤل والاستفسار ، لقد مضي عام كامل بأفراحه وأتراحه ، وأحداثه ، الكبار والصغار ، وأقبل على ، وعلى أعصابي وعلى عواطفي ، وعلى أصدقائي ، وعلى غير أصدقائي في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، عام جديد ، كلنا يرجو أن يكون عاماً سعيداً ، وكلنا يرجو أن تنبجس أيامه ولياليه ، عن خير شامل ، ونعمة سابغة ، وراحة بال ، واستتباب السلام العام ...

(١) صحيفة الشعب ، ٣ يناير ١٩٥٧م .

« فهل تصدق الأحلام ؟ من يدري ... لعلها تصدق ...

« إذا صدقت الأحلام ، فبها ، ونعمت .

« وإذا لم تصدق ، فلا حول ولا قوة .

« أحلامي ، وأحلامك ، لا يمكن أن تصدق جميعاً .

« آلامي، وآلامك ، لا يمكن أن تصدق جميعاً .

« مرحباً بالعام الجديد ، الذي لابد أن يحمل إلينا بعض الخير ، ولابد أن يروعنا ببعض الشر، لأنه لا يمكن أن يكون كله خيراً ، ولا يمكن أن يكون كله شراً ، فالدنيا دواليك ... يوم لك ويوم عليك ، وتلك سنة الحياة .

« في باكورة الشباب ، وفي ريعانه ، كنا نشيع العام الماضي فرحين مستبشرين، غير جازعين لفراقه ، ولا باكين عليه .

« وبعد الأربعين أصبحنا نبكي لفراق كل عام ذهب ونوجس خيفة من كل عام يقبل ، وهذا منطق من يراجع حساب الختام في نهاية كل عام » .

◆◆◆

وبعد ، فقد شهدت السنوات الأخيرة من حياة شاعرنا نشاطاً ملحوظاً في مجال النثر ، فقد ترجم عدة كتب منها «فن الحياة » لأندريه موروا و«جان كريستوف» لرومان رولان ولخص كتاب «عظماء معاصرون» لتشرشل وترجم مختارات من شعر ميلتون وبعض كتب برناردشو ، بجانب مؤلفاته التي نشرت في مطالع شبابه وهي قصة «الله والشيطان» وهي أقرب إلى الحوار الفلسفي منه للقصة وديوانه اليتيم «قال الشاعر» الذي صدر في القاهرة عام ١٩٤٩ وكان شعره فيه يندرج تحت ثلاثة أبواب هي :

١ ـ مناسبات : يغلب عليها القصائد السياسية والحزبية مثل محنة العرب ـ مؤتمراً أريحا ـ الدستور والانتخابات ـ يا حمامة السلام ... إلخ .

٢ ـ خصوصيات : يغلب عليها الطابع العاطفي والوجداني مثل قصائد : أحزان البيان ـ الرسم المحترق ـ الدمية الحسناء ـ وحي راقصة ـ لوم .. إلخ .

٣ ـ أغاريد : وتجمع هذه القصائد بين الشعر العاطفي والشعر التصويري الوجداني مثل : الكرنك ـ فجر ـ حديث عينين ـ همسات ـ أنت ـ نداء الغروب ـ إليها وهي قصائد تغني بها كبار المطربين مثل الموسيقار محمد عبد الوهاب والموسيقار رياض السنباطي وأسمهان ولوردكاش ومحمد صادق .

◆◆◆

المرأة في حياته

ملهمة قصة الأمس

كانت في حياة أحمد فتحي قصة حب كبير ... ألهمه أجمل قصائد الحب وأرقها في سنواته العشر الأخيرة ...

كان حباً تحوطه الأشواك من كل جانب ، فقد أحب امرأة متزوجة وكان حباً عنيفاً عاصفاً دام بين مد وجزر لعشر سنوات كاملة ضاربين عرض الحائط بكل العقبات والأشواك التي تعترض حبهما العنيف .

يقول أحمد فتحي في بعض اعترافاته عن هذه التجربة :

« في هذه التجربة أحسست للحب طعماً ومذاقاً جديدين ...

« شعرت أنني أحيا حياتي من جديد ...

« كانت تبحث عن الحب مثلما كنت أبحث عنه والتقينا عند هدف واحد ..

« وتعانقت روحانا وشعرت يومها أنني كنت تائها بشراعي وسط محيط متلاطم وكانت هي المنار الذي أنقذني ..

« كانت علاقتنا تحوط بها الأسلاك الشائكة والألسنة الهامسة ...

« تحايلنا على الظروف ... كنا نلتقي وسافرنا إلى أراض بعيدة ، ثم عدنا مرة أخرى إلى القاهرة...

« ألهمتني شفتاها أجمل قصائدي ..

« وعلى صدرها ارتاحت أروع خواطري : وكانت كلها باسمة » .

وعاش شاعرنا هذه التجربة عشر سنوات كاملة ...

وأخيراً تغلب منطق العقل على صوت القلب والعاطفة فطلبت منه محبوبته الافتراق ، وقالت له:

ـ سأظل أذكرك دائماً ... ومن الجائز أن يكون الحرمان بالنسبة لك منجماً تستلهم منه أعظم أعمالك الأدبية ..

وافترقا وملء قلبيهما اللوعة والأسى .

واعتكف شاعرنا عن الناس ، يعايش وحدته القاتلة وليس له من صديق سوى الكأس والمصباح والذكريات ...

ألهمته قصيدته الوجدانية الرائعة « قصة الأمس» التي تنبض بالحرارة والصدق وحرقة الوجد والتي استلهمها من وحي هذه التجربة التي صهرته بالعذاب والتي يقول فيها :

أنا لن أعود إليك مهما
استرحمت دقات قلبي
أنت الذي بدأ الملالة
والصدود وخان حبي
فإذا دعوت اليوم قلبي
للتصافي ، لن يلبي

◆◆◆

كنت لي أيام كان الحب لي
أمل الدنيا ودنيا أملي
حين غنيتك لحن الغزل
بين أفراح الغرام الأول

◆◆◆

وكنـــت عينـــي وعـــلى نورهـــا
لاحـــت أزاهـــير الـــصبا والفتـــون
وكنـــت روحـــي هـــام في سرهـــا
قلبـــي، ولم تـــدرك مـــداه الظنـــون

ثم يبلغ ذروة تأثره وعتابه لملهمته الظلوم ، فيقول :

وعـــدتني ألا يكـــون افـــوى مـــا بيننـــا
إلا الرضـــــا والـــــصفاء
وقلـــت لي أن عـــذاب النـــوى
بـــشرى توافينـــا بقـــرب اللقـــاء

◆◆◆

ثـــم أخلفـــت وعـــودا
طـــاب فيهـــا خـــاطري
هـــل توســـمت جديـــدا
في غـــرام نـــاضر

ثم يطلق شاعرنا هذه الصرخة الحارة المتقدة من قلب حزين مكلوم على هذا الغرام الذاهب وهذا الحب الغارب :

فغرامـــــــــي راح
يـــا طـــول غرامـــي إليـــه
وانـــــشغالي في ليـــالي
الـــسهد والوجـــد عليـــه

ثم تخفت النغمة في عتاب هادئ حزين :

وكنـــت روحـــي هـــام في سرهـــا
قلبـــي ولم تـــدرك مـــداه الظنـــون

ثم يسهر شاعرنا واللوعة ملء جوانحه مع جراحه وشجونه لا يجد له أنيساً

إلا المصباح والأقداح والذكريات :

يسهر المصباح والأقداح والذكرى معى
وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي
يا لذكراك التي
عاشت بها روحي على الوهم سنينا
ذهبت من خاطري
إلا صدى يعتادني حينا فحينا
ذهبت من خاطري
إلا صدى يعتادني حينا فحينا

وتمر لياليه طويلة ممضة مفعمة بالجراح والأحزان تخايله أطياف الذكريات فتؤرقه في معبده الصامت :

قصة الأمس أناجيها وأحلام غدي
وأمانيّ حسان رقصت في معبدي
وجراح مشعلات نارها في مرقدي
وسحابات خيال هائم كالأبد

وعندما تغنت أم كلثوم بهذه الأنشودة الرائعة بلحن رياض السنباطي الدسم عكف أحمد فتحي في غرفته يستمع إليها ويبكي وحيداً يعاني مرارة التجربة ويستنشق عبير الذكريات ..

وظل أحمد فتحي « شاعر الجراح والمصباح والأقداح » يحمل لهذا الحب أجمل الذكريات وأعذبها حتى آخر نسمة في حياته ...

كان عندي وليس بعدك عني
نعمة من تصوراتي ووجدي
يا ترى ما تقول روحك بعدي
في ابتعادي وكبريائي وزهدي

ثم تبلغ ذروة يأسه فيرجو محبوبه أن يعيش كما يهوي أما هو فسوف يعتكف وحيداً لا رفيق له سوى الجراح والمصباح والأقداح وليالي السهر والوجد والشجن :

عـــش كـــما تهـــوى قريبـــاً أو بعيـــدا
حـسب أيـامي جراحـاً ونواحـاً ووعـودا
وليـــــالي ضـــــياعاً ، وجحـــــودا

ثم يسهر شاعرنا واللوعة ملء جوانحه مع جراحه وشجونه لا يجد أنيساً له إلا المصباح والأقداح والذكريات :

يسهر المصباح والأقداح والـذكرى معي
وعيـون الليـل يخبـو نورهـا في أدمعـي
يـــا لـــذكراك التـــي عاشـــت بهـــا
روحـــي عـــلى الـــوهم ســـنينا
ذهبـــــت مـــــن خـــــاطري
إلا صـــدى يعتـــادني حينـــاً فحينـــا

مأساة شاعر الكرنك

كان أحمد فتحي قد عانى منذ صباه ، ألم الحرمان من حنان أبويه اللذين رحلا عنه في صدر صباه الباكر ، ثم لم يلبث أن تقلب في أتون من عذابات القلق والحيرة والاكتئاب .

وطافت به مطالب العيش بين مختلف الأصقاع في غرب و شرق . وكان حظه من متاع الحياة أقل من القليل .

ولولا نوازع إنسانية في قلوب بعض من أحاطوا به لساء حاله عما كان عليه، فماذا تنتظر من هذا الشاعر الذي لقي من دهره كل هذا العناء من ضن النصيب وقسوة الحرمان ؟

عاش أحمد فتحي حياة قلقة مضطربة ، كما لو كان قارباً في محيط ، ضاع منه المجداف ، وانفصلت عنه دفته ، وتمزق من فوقه الشراع ...

وكان هو يطلب العلم في انجلترا (١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) على نفس القدر من القلق والحيرة وهو في الأقصر (١٩٣٨) فلقد نشأ قلقاً منذ طفولته ولازمه قلقه الذي كان يسري مع دقاته حتى آخر يوم في حياته .

والقلق نعمة في صورة نقمة للشاعر الملهم . إنه من ذخائره من حيث لا يدري .. وهو من هواتفه من حيث ينحى عليه باللائمة وهو من قبل ومن بعد ، نار ونور ، يتلظى منها ساعة ، ثم لا يلبث أن تعكس حرقها نوراً على ما ينظمه من قصيد أو نشيد أو أغنية . إنه القائل :

نُـوحي عـلى قلـق الغُـصون ورَجِّعـي
يـا طـيرُ آهـاتِ الفَـؤادِ المُوجَـعِ
واستودعي الألحـان مِـنْ حُـرق النوى
وشـجونه مـا شـئت أن تـستودعي

والنفس إذا استبد بها القلق والحيرة ، تنفس عن عنائها بالغناء تنظمه في شعر يفيض بالموسيقى العذبة الشجية .

والطير والغريب والمحروم والعاني ، سواءٌ في رقة ما يتغنون به . وكأنما تشاء قدرة الله وإرادته أن تعوضهم عما يعانون ، فتغدق عليهم من الملكات أروعها وهو الغناء والموسيقا .

وكان شعر أحمد فتحي في جملته يغني ، وترى ألفاظه وهي تصدح كأنها الوتر الحزين أو الكنار الشجي الباكي .

أنظره في هذه الموسيقا الشعرية :

قالوا يراعُكَ قد تنكَّب في القوافي قلت: إنه
ما فضلهُ إن لم يخلِّد مجد صاحبه وفنَّه
بالقافياتِ الرائعاتِ المُحدثات فُنونه

❖ ❖ ❖

كانت مأساة أحمد فتحي أنه لم يستطع أن يقيم توازناً بين أحلام قلبه وواقعه .. وكان دائماً لديه إحساس حاد بالاغتراب الروحي ، فعاش قلقاً حزيناً مشرداً في الأرض ، لا زوجة له ولا ولد ، ولا مال ولا صديق وفي ، لا ترى حوله إن شقي أو مرض أحد من ذويه ولا صاحب إلا الكأس، يرشفها في نشوة ، وتصرعه في قسوة .

ويلقى شاعرنا الأضواء على سر انغماسه في اللذة فيعلل سر أبيقوريته المنتشية المرحة ، فيقول[1] :

« إن تنشئني الموحشة قد ملأت قلبي ظمأ إلى أنس المجتمع ، ومباهجه السافرة ، كانت أيام شبابي الأولى ضروباً من الوحدة والضعف والألم ، وليس معنى هذا أنني كنت أحيا بمعزل عن سائر خلق الله ، كما تحيا الشجرة النابتة في

(١) أحمد فتحي ، الله والشيطان ، ١٩٣٩م ، ص : ٨ .

جوف الصحراء ، ولا معنى ذلك أنني نشأت مهيض الجناح معقل البدن ، ولا أنني كنت أعيش في بوتقة تنصهر فيها الدموع ... كلا ... ولكنني كنت في محيط أشعر في أعماقي أنه لا يمنحني من الحب بعض ما أمنحه ، وأرجو أن يمنحني ، وكان هذا يشعرني دائماً بأنني ضعيف بمن حولي ، فما كان بوسعي اعتبارهم قوة أصمد بها في وجه الأيام .

« وكان هذا الشعور يجعل حياتي معرضة لأحزان طائفة تغشى لحظات سعادتي على قلتها » .

من هنا كانت مأساة شاعر الكرنك ...

هرب إلى المرأة والكأس والسفر والحرب يحاول أن يجد فيها ملاذاً من أحزان قلبه وآلام روحه فتحطم ...

وكانت مأساة شاعر كبير حساس .

وفي سنواته الست الأخيرة (١٩٥٤ ـ ١٩٦٠) بلغت مأساته ذروتها ...

كان يذوب تدريجياً ...

كان في تلك الحقبة يعاني من علة الكبد ، وكان ساخطاً على الأدب والفن ، وقلة ذات اليد بالإضافة إلى أنه بين كل هذه العواطف وحيد لا زوجة ولا ولد ولا أهل .

وفي تلك الحقبة كانت الصدمة التي هزته من أعماقه هزاً عنيفاً ...

فقد قررت محبوبته اللمسة الحانية في حياته ولمحة الضوء في الأفق المظلم ـ قررت الافتراق عنه بعد حب دام سنوات ...

وأحس بالمرارة والضياع فلجأ إلى الليل وأهمل نفسه وصحته وهام بالعزلة وكلف بالوحدة وطفق يسرف في الشراب يدفن فيها أحزانه وانطوى على نفسه بعيداً عن المجتمع في وحدة قاسية ممضة لا رفيق له سوى المصباح والأقداح والذكريات :

يسهر المصباح والأقداح

والـــــــــذكرى معـــــــــي
وعيـــــون الليـــــل يخبـــــو
نورهـــــــا في أدمعـــــــي

ثم راح يذوب تدريجياً ...

واشتدت عليه العلة ودخل المستشفى الإيطالي بالقاهرة وبعد أن خرج من المستشفى في شهر أكتوبر عام ١٩٥٩م خرج ومعه ذكرى لملاك أبيض رآه ... راهبة في ثيابها البيضاء زاهدة إلا من إنسانية لا تمن بها وإنما تحاول أن تعطيها وهي تحنو عليه مع جمال روح ورضاء نفس وابتسامة نقاء...

وكان أحمد فتحي يعيش في تلك الحقبة من حياته في جو من الروحانية والصفاء فكتب وهو على فراش المرض قصيدة بعنوان «أراهبة أم ملاك» يقول فيها [1] :

أجـل والمسيح احـيٌّ والجسد الفـاني
لقد عـاشَ في قلبي ، مع احـبٍّ ، طيفـان
رجـاءٌ وشـيكُ الـبُرء ، تـرقصُ روحـهُ
بخفـــة مفتـــونٍ ، ونـــشوة فتَّـــان
ويـأسٌ قريـرُ العـينِ ، يرنـو خيالـهُ
إلى جنَّـة الفـردوس ، في العـالم الثـاني
فـلا تجزعـي ، يـا أختُ ، إنـكِ خـاطرٌ
يُطـلُّ عـلى حَـاني ، ليـسمَع ألحـاني
ومـا الحـانُ إلا معبـدي ، وبقُدسـهِ

(١) الأهرام ، ٢٨ أكتوبر ١٩٥٩م .

أقـيمُ صـلاواتي ، وأخلـو بـإيماني
وهبـتِ صـباهُ للسَّماءِ ، فطهَّـرت
حمـاكِ ، فلـم يُـدنس ، بقـاصٍ ، ولا دانِ
وزُهـدك في دُنيـا الـورى ، ومتاعهـا
تُبلـورُ نفـسا ترتـضى كـلَّ حِرمـانِ
ويـا أختُ : هـذا الزهـدُ آيـةُ نعمـةٍ
مـن الله ، تـوحي باحتـسابٍ ، وغُفْـرانِ
فـداوى سـقام النَّـاسِ ، وابتـسمي لهـم
بِلطـفِ سَـماحٍ ، أو بـشاشة إحـسان
فـإن الثَّـوابَ الحـقَّ ، لـيس ينُالـهُ
سـوى قلـب وافٍ ، لا يـضنُّ بقُربـانِ

وعندما أقبل مطلع العام الجديد .. عام ١٩٦٠ م كتب قصيدة يكاد يرثي فيها نفسه .. والغريب أنه توفى في منتصف هذا العام بالذات ... يقول في هذه القصيدة [١] :

قـال لي ، والليـلُ يـسري بيننـا
نغـمٌ يـسري ، سُـؤالاً ، وجوابـا
مـا تـرى الأيـام ، في آثارنـا
مـسرعات الخطـو ، تنساب انـسيابا ؟
مـا لنـا نُنكـر مـن موكبهـا

(١) الأهرام ، أول يناير ١٩٦٠ م : قصيدة «عام جديد».

أنـــه يـــدهمُ شـــيباً ، وشـــبابا
قلـــتُ: والفجـــر جبـــينٌ مـــشرقٌ
وجَنـــاحُ الليـــل في الأنـــوار ذابـــا
هكـــذا الـــدنيا ، وفي حالاتهـــا
حـــيرةُ الفكـــر ، يقينـــا ، وارتيابـــا
ذهـــب العـــامُ الـــذي روَّعنـــا
منـــهُ ، مـــا روع ، سُـــقماً ، وعـــذابا
مـــا تـــراني طمـــستْ آثـــارهُ
في خيـــالي لوعـــة ، الـــروح ، عقابـــاً
لم أعـــد أرجـــو ، ولا أخـــشى ، ولا
أحـــسب اليـــوم ، لأعـــوامي ، حـــسابا

وعندما اشتدت عليه العلة بجانب أحزان روحه في عامه الأخير (عام ١٩٦٠) كتب قصيدة عن رحيل الشتاء تفصح عن روح حزين ونفسية شقية تكشف عن أبعاد المأساة لشاعر في عنفوان رجولته ، يقول فيها [١] :

مـــالَ عنـــي الـــشتاءُ ، في شَـــفق العُمـــر
ومالـــــت بشمـــــسه الأنـــــواءُ
رعـــدةٌ ، مـــن بـــرودةٍ ، وذبـــولٍ
مـــن جفـــافٍ ، قـــد طـــال فيـــه العنـــاء
وأعاصـــيرُ ذكريـــات ، كـــما تعـــوي
ذئـــابٌ ، يخـــافُ منهـــا الفـــضاء

(١) الأهرام ، ١٤ مارس ١٩٦٠م : قصيدة «وداع الشتاء».

وســـــقام تـــــدبُّ في جَـــــسدِ ذاوِ
عليـــــلٍ ، يـــــسعى إليـــــه الفنـــــاء
قـــال لي صـــاحبي : سَـــلِمتَ ، وهَـــلْ
يـــسلمُ ، طيـــف ، أعـــضاؤه أشـــلاءُ ؟
قلـــتُ : مـــالي وللربيـــع ، وروحـــي
غـــصنُ بـــان ، أوراقـــه صـــفراء
دع أزاهـــيرهُ ، لغـــيري ، ومـــا أكثـــر
مـــا تنتـــشي بهـــا الأهـــواءُ
ثـــم دعنـــي ، ووحـــدتي ، فلّعـــلي
تـــرحمُ الأرضُ وحـــدتي والـــسَّماءُ
لـــيس عِنْـــدي إلا الـــصَّدى ، ولَـــدىَ
النـــاس ، هتـــافٌ ، تُجلجـــلٌ ، وغنـــاءُ
وَبهـــم فَرْحَتـــي إذا فـــرحَ القـــومُ
ســـواءً إن أحـــسنوا ، أو أســـاءوا

وفي صيف عام ١٩٥٩م زار شاعرنا ملاعب صباه بالإسكندرية وذهب إلى شاطئ البحر يبثه همسات قلبه ونجوى روحه [1]:

قلـــتُ لمـــوج البحـــرِ: يـــا موكبـــاً
تـــراهُ عينـــي بـــين حـــينٍ وحـــين
أمواجُـــكِ الزرقـــاءُ تـــروي لنـــا
قـــصة حُـــبٍ عـــاش مـــلءَ الـــسنين

(١) الأهرام : ٧ يوليو ١٩٥٩ – قصيدة «همس الأمواج».

هـــو الهـــوى الخالـــدُ ، يـــسعى بـــه
إلى ضـــفاف الـــشَّك همـــسُ اليقـــين
وهـــو - عـــلى قِلَّـــةِ عِلمـــي بـــه -
آيـــةُ جبـــار الخطـــى مـــستكين
يـــوحي إلى الـــزورق أحلامـــهُ
فَيهجـــعُ الليـــلُ وراء الـــسُّكون
ولي ، شراعٌ ، ســـــابحٌ لونُـــــهُ
كلمحـــةِ الفجـــرِ يُـــضيءُ العيـــون
يهمـــسُ للـــشاطئ في رقَّـــةٍ
تـــذوبُ فيهـــا عَـــبراتُ الحنـــين
مـــا بـــالُ هـــذا الرمـــلِ حبَّاتُـــهُ
تـــسمعُ مِنَّـــا كـــلَّ رَجْـــعِ الـــسِّنين
نـــشكو إليهـــا بـــادرات الأســـى
فـــيما يكـــون اليـــومُ أو لا يكـــون
ونـــسكب الـــسِّرَّ عـــلى سَـــمْعها
وقـــد تـــصونُ الـــسرَّ أو لا تـــصون

ورغم أن شاعرنا حاول أن يدفن في الكأس والشعر ذكريات غرامه الكبير لينسى إلا أن طيف الحب كان يطرد خياله في صحوه ومنامه ، فكتب يعاتب محبوبته بعد الفراق يقول [1] :

أنـا لـستُ أعفـو عنـكَ ، إنـكَ ظَـالمُ

(١) الأهرام ، ١٦ أبريل ١٩٦٠ م : قصيدة «إليها».

والظلُّـــــم لا أرضى ، ولا أخـــــشاه
إن كـان بي ضعفٌ إليـكَ ، فقـد مَـضى
عهـــدي بـــه ، بـــشقائهِ ، ورضـــاه
أنـــت الـــذي أحرقـــتَ سِـــفْرَ غَرامِنـــا
بجمالـــــه ، وضـــــلالِه ، وهـــــداه
ورسـمت لي هـذا الطريـق ، فلـم يَعُـدْ
لي مـــن طريـــقٍ في الحيـــاةِ ، سِـــواهُ
أمـضى بـه وحـدي فَبعْـدَكَ لم يكُـن
لي ، غـيرُ وحْـشَته ، وطـول ضـناهُ
عَثراتُـــه لا تَنْتَهـــي ، وظلامُـــهُ
لا ينقـضي ، وأقـولُ : أيـن مـداهُ ؟
مهـما يَطُـلْ بي الـسَّيرُ فيـه ، فـإنَّني
مترقـــبٌ لظلالـــهِ ، وصـــداهُ
ولـكَ الثَّنـاءُ بـما صـنعتَ بَمُهْجَتـي
فلقـد كـشفتَ عـن الفـؤاد ، عَـمَاهُ
وأعـدتَ لي نفـسي ، فكـم مـن غائـبٍ
قـد ردَّ غُربتـه اشْـتِدادُ جَـواهُ

◆◆◆

ثم راح شاعر الكرنك يذوب تدريجياً .. حتى تحطم كشاعر ثم كإنسان ... وكما عاش وحيداً .. مات وحيداً في الغرفة التي قضى بها أعوامه الأخيرة بفندق كارلتون بوسط القاهرة .

وكانت العلة ـ علة الكبد من أثر الكأس ـ قد اشتدت عليه في عامه الأخيرين ، وعاودته أكثر من نوبة حملته إلى المستشفى أكثر من مرة ، حتى كانت ليلة الأحد ٣ يوليو عام ١٩٦٠م حين أوى إلى غرفته بالفندق بعد منتصف الليل، وعاودته النوبة ، فاستنجد بطبيب من أصدقائه ، وجاء الطبيب ، فوجده قد أسلم الروح واستراح ...

ووجدت بجانب فراشه صورة ابنته الوحيدة «عائشة» البعيدة في لندن كما وجدت قصيدة على مكتبه ... كانت هي القصيدة الأخيرة التي كتبها ولم يجف مدادها بعد قبل رحيله ... وكانت قصيدة حب .. وكما بدأت حياته بالحب انتهت بالحب ، ورحل الشاعر وهو يهمس لمحبوبة قلبه الهاجرة :

أحبك جهد الحب ، بل فوق جهده
وأطوى إلى يوم اللقاء الليالي
أحب خيالي فيك ، أبيض ناصعا
وأخضر ريان ، وأحمر قانيا

◆◆◆

مكانك عندي ليس عندي سوى المنى
بذلت قصاراها على الوصل ، والهجر
وعندي لك الدنيا ، فإن عدت
علينا الليالي ، فالمثوبة للصبر

◆◆◆

رمت بي إلى دنيا هواك المقادر
فلا أنا معذور ، ولا أنا عاذر
على أنها الأيام دارت مدارها
فلا أنا منهي ، ولا أنا آمر

وهكذا كان نصيبه من الدنيا .. الدنيا التي عاشها صفر اليدين .. وخرج منها صفر اليدين من كل شيء .. من المال ، ومن الحب ، وحتى من الذكرى .. إن الذين يذكرون أنشودته «الكرنك» وقصيدته «فجر» وقصيدة «قصة الأمس» الآن ، قد لا يذكرون اسمه .. أو يعرفون عنه شيئاً ..

لقد عاش أحمد فتحي لآخر لحظة من لحظات حياته ـ رغم أحزان قلبه وآلام روحه محباً للدنيا بكل ما فيها وبلغ توهجه مداه فاحترق فانطفأ ونغمات من الشعر على شفتيه ...

رحل شاعرنا في الثالث من يوليو عام ١٩٦٠ م وملء قلبه الحسرة والمرارة والأسى ودفن بمقابر الإمام الشافعي بالقاهرة .

تلك كانت ملامح مأساة شاعر عاش للحب وظل يغني للحب حتى آخر نسمة في حياته الخصبة العريضة ...

لقد كان شاعر الكرنك ، أحمد فتحي من أرق شعرائنا الرومانسيين ، عاش كالطائر الجريح : قلقاً ، حزيناً ، حائراً ، لا يجد للاستقرار سبيلاً أو للراحة معنى..

ومن هنا كانت مأساته ..

وقد قدمنا في الصفحات السابقة قصته مع الليل والمرأة والسفر والاغتراب الروحي .

مأساة شاعر المصباح والأقداح!!

كانت السنوات العشر الأخيرة في حياة أحمد فتحي سنوات معاناة نفسية وجسدية ومادية، مما أثار تعاطف كل أصدقائه ومعارفه ومحبيه ، وقد بدأت محنته تلك بعد انتهاء عمله كمراقب للبرامج بالإذاعة السعودية بجدة وعودته إلى القاهرة حوالي عام ١٩٥٤ .

وقد اعتبر الشاعر السعودي حسن عبد الله القرشي عمله بالإذاعة السعودية إضافة مهمة كعنصر جديد ولخبرته ومواهبه وقوة شخصيته ، فكان بارع الحديث ، أنيس المجلس ، طريف النكتة ، كما كان راوية جيد للشعر العربي [١] .

وبعد عودته للقاهرة أقام في فندق كارلتون بشارع فؤاد (٢٦ يوليو) في غرفة خفيفة الأجر ، ضئيلة القدر يعاني ضيق ذات اليد ، وقسوة المرض .

ويذكر صديقه الشاعر الكبير صالح جودت (١٩٠٨ ـ ١٩٧٦) أن أحمد فتحي عاد إلى القاهرة وفي جعبته أخلاف مما كسب في السعودية لكنه ظل ، كما كان طول حياته ، متلافاً لا يحسب لما بين يديه حساباً ، ولا يفكر في غد ، أبداً فلم يتخذ له منزلاً يستقر فيه ، ولم يعد يفكر في الزواج، بل جعل همه الكأس ، لعله ينسى بها ما أهدر من شبابه ، وما فقد من حبه الأول في عهد الصبا ، وما عانى من حبه الأخير اليائس إذ هو في السعودية [٢] .

واتخذ مقاماً له في الغرفة رقم ١٤ من فندق كارلتون ، وراح يقضي جل لياليه في حانة الفندق، مع نفر من الأصدقاء الذين أحبوه وعطفوا عليه وقدروا شعره ، وجعلوا يدفعونه إلى الإنتاج دفعاً .

وفي هذه الفترة ، استولت عليه السوداوية التي كانت تنتهي به في كثير من

(١) حسن عبد الله القرشي ، عرفت هؤلاء ، مؤسسة عكاظ الرياض ٢٠٠٧ .

(٢) صالح جودت ، شاعر الكرنك ، كتاب الهلال ، عدد ديسمبر ١٩٧٣ .

الليالي إلى البكاء المر، كلما تذكر سلسلة الفشل التي اتصلت حلقاتها عبر حياته ، ونضبت أخلاف المال التي بين يديه ، فكتب إلى صاحبه الشاعر الأمير عبد الله الفيصل ، الذي استجاب له ، ووصله برفد شهري لا بأس به ، ولكن أنى لمثل هذا الرفد أن يواجه الحياة التي أراد شاعرنا أن يحياها عن سعة .

وهكذا وقع في الضائقة إثر الضائقة ، وعانى أكثر من موقف عصيب تجاه أصحاب الفندق حينما كان يعز عليه في بعض الأحيان أن يؤدي نفقات إقامته وطعامه وشرابه .

وقدمه بعض محبيه إلى المرحوم صلاح سالم ، وهو يومئذ المشرف على تحرير جريدة «الشعب» وأوصوه به خيراً ، ففتح له أبواب الرزق ، وفسح له مكاناً على صفحة الأدب بالجريدة .

لكن شاعرنا لم ينتظم في إنتاجه ، فلم ينتظم رزقه بالجريدة ، وظل يعاني أزمات المال فوق أزمات النفس حتى آخر يوم في حياته .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الفترة لم تخل من لمحات شعرية ، أكثرها عاطفي ، كانت صحيفة «الأهرام» تنشرها له على صفحتها الأخيرة ، ومنها قصيدته التي غنتها أم كلثوم والتي يقول مطلعها :

أنـــا لـــن أعـــود إليـــك مهـــما
.. اســـترحمت دقـــات قلبـــي
أنـــت الـــذي بـــدأ الملالـــة
والـــصدود وخـــان حبـــي
فـــإذا دعـــوت اليـــوم قلبـــي
للتـــصافي لـــن يلبـــي
لا ... لـــن يلبـــي

◆◆◆

وقد أبدع الموسيقار رياض السنباطي في تلحين هذه الأنشودة أيما إبداع ، وشدت بها أم كلثوم فبلغت الذروة في لقاء من اللقاءات النادرة بين الكلمة الرفيعة واللحن الرائع والصوت المعجز.

فماذا كان نصيب صاحبنا من هذه الأغنية ؟

لقد حققت له حلماً من أجمل أحلام حياته ... حلماً طالما راوده في فترة شبابه الأول ... حينما خذله عبد الوهاب - بعد أنشودة الكرنك - فأبى أن يغني له قصيدة «البحيرة» .. فاتجه يومئذ إلى أم كلثوم ينتقم بها من عبد الوهاب ، وبعث إليها بأكثر من أغنية .

ولكن أم كلثوم خذلته هي الأخرى في ذلك العهد ، عهد الشباب الأول .

ثم ها هي ذي تعود في أيامه الأخيرة فتغني له هذه الأنشودة العذبة .

ويسترد شاعرنا كل ما فقد من أمل ، ويحس أن القدر قد ابتسم له بعد طول عبوس ، ويبعث إلى أم كلثوم بقصيدة أخرى ، فلا تستجيب له هذه المرة ، فيعاود الكرة مع عبد الوهاب ، ولكن أبواب عبد الوهاب تقف صماء أمام مطلبه .

أما نصيبه المادي من هذه الأغنية ، فلا يزيد على خمسين جنيهاً ، ينفقها في غمضة عين ، ويعود إلى حانته ليغرق همه في الكأس ، ويستسلم لموجة قاتلة من اليأس .

ويصعد ذات ليلة ، هي ليلة ٤ يوليو عام ١٩٦٠ ، إلى غرفته رقم ١٤ بفندق كارلتون ، ويحس أنه متعب مكدود ، ويحاول أن يظفر بأحد من أصدقائه الأطباء، فلا يجد منهم أحداً .

ويصبح صباح حزين ...

أما السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (١٩٠٥ - ١٩٨٠) فيسترجع بعض ذكرياته وانطباعاته عن شاعر الكرنك فيقول [١] :

(١) محمد رضوان ، رحلتي مع القلم ، سقط ١٩٨٥ .

«كان يكتم في نفسه ما يراه من حوله من ثراء ينعم فيه من لم يكد في تحصيله، أو يشقى كشأنه، في تحصيل بعض فتاته.

وما سمعته يوماً ينفس على إنسان حظه من السعادة، أو يتطلع إلى ما في يد غيره، ما دام هذا قسمه، ونصيبه من الرزق المقسوم، ولم أكن ألقاه إلا في فترات متباعدة، كلما حللت بالقاهرة في عطلة من عملي، وكان هو منحازاً إلى نفسه وإلى جماعة ضيقة من الأصدقاء، وكان يختارهم بذوقه الرفيع، وكأنما هم بعض ملبسه الذي يحب أن يتأنق به.

ولم أكن أحس معه بمرور الوقت، الذي كنا نقطعه في الحديث عن شعر الأولين والمحدثين، وعن الجديد مما نظم أو كتب أو قرأ.

وهو كما قدمت، في عنايته باختيار أصدقائه، فكان هذا هو شأنه في اختيار ما يقرأ، في اللغة العربية أو الإنجليزية، وكأنه النحلة التي لا تروم إلا رحيق الزهر غذاء. وأشهد أني ما سمعته يتناول أحداً في غيبته بسوء، بل لقد كان ينبري لرد من يقوم على ذلك، ورجائه في أن يدعنا فيما نحن فيه من شأن!

وكنا نتراسل وأنا بعيد المزار عن مصر وأبدي له ما يعن لي من رأي فيما يكتب، فكان يتلقاه بالعناية والدرس والتحليل والتعليق.

وكان يحدثني عن حبه حديث المكتوي بجوره في رضا بحظه الذي هو مقسوم له في كل مناحي الحياة.

ولم يكن ليرضى بجور الحبيب، إلا من قبيل الدخول في تجربة تنصهر في بوتقتها روحه الهائمة، تعكسها فيما ينظم أو يكتب.

وكان يعتقد أن الحب واجب حتم على كل شاعر أن يذوقه ويصلى ناره حتى يرق شعوره، ويصفي شعره وترسخ في أعماقه معارف من هذه العاطفة التي تولد معنا بدرجات ونسب مختلفة.

ولقد قيل لشاعر عربي، لم سكت عن نظم الشعر، فأجاب بأنه قد غدا «لا يحب ولا يكره ولا يثار»، وهو لا يقول الشعر إلا في واحد مما ذكر.

وقد أطلق أحمد فتحي لنفسه العنان في انتهاب اللذات بنهم ، لا اعتدال فيه! فقد كان شعاره في الحياة :

مـا مـضى فـات والمؤمـل غيـبٌ ولـك الـساعة التـي أنـت فيهـا

لقد كان يشكو لي فقد المذاق في كل ما يرى أو يحس أو يأكل أو يشرب ! وكنت لا أملك نصحه وأنا أعلم أن نصحي ذاهب مع الريح ، أو هو قبض الريح إن استطعت إلى ذلك سبيلا!

وكنت في كل ليلة ألقاه فيها ، أفتح عيني في صباحها على السؤال عنه ، من توقعي ما كان يوده، وما كنت أخشاه ، حتى انتهي إلى بعد سنوات قليلة ، نبأ وفاته وأنا بعيد المزار عن مصر ، لا أملك إلا الأسى والحسرة على فقده ، والإشادة بمآثره .

❖❖❖

أما الأديب كمال النجمي فيقدم لنا هذه الصورة الأدبية لشاعر الكرنك وبعض ذكرياته عنه[1]:

« قبل أربعين عاماً كنت أسكن في «نزل» أو في «بنسيون» كما يسمونه بالإفرنجية ، يتوسط شارع سليمان باشا في القاهرة «اسمه الآن شارع طلعت حرب» ، وكان مسكني هذا في الحي الذي يسميه القاهريون «وسط البلد» ، حيث تحتشد المسارح ودور السينما والفنادق والمتاجر والمطاعم والمقاهي ، وتسهر المدينة إلى ما بعد منتصف الليل .

كان هذا الحي - حينذاك - يتلألأ بالأضواء ، وتنطلق في شوارعه ليلاً أسراب الحسان من مصريات وأجنبيات ، حتى أطلق عليه الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك : « جنة العشاق » .. وقال إن ملتقى شارع فؤاد الأول « اسمه الآن شارع ٢٦ يوليو» مع شارع عماد الدين ، هو أجمل مكانٍ في العالم ، وأنه عاش في باريس سنوات طوالاً فلم ير فيها أجمل من ذلك المكان ، أو ذلك الملتقى ...

(١) مجلة سطور ، شاعر الكورنك (كمال النجمي) يناير ١٩٩٧ .

كان ذلك في الماضي البعيد ، أما الآن فقد أخنى الزمان على «وسط البلد» .. واختفت الطبقة الوسطى المثقفة التي كانت روح عمرانه وازدهاره ليلاً ونهاراً .. وانتقل «وسط البلد» الجديد إلى مجموعة الفنادق ذات النجوم التي تحيط بشاطئ النيل ، وفي هذا الوسط الجديد تتألق الطبقة الجديدة كل ليلة ، بعد أن اختفت من الوجود جميع مقاهي وسط البلد القديم وجميع مطاعمه ومشاربه ، وأناخ الزمان بكلكله على كل شيء هناك !

وكان لي أيامئذ صديق ينزل بفندق يسمى «كارلتون» على مقربة من البنسيون الذي أسكنه ، فكنت أزوره من وقت إلى آخر ..

وذات ليلة رأيت كهلاً مديد القامة يدخل الفندق ثم يدلف إلى الأسانسير ، صاعداً فقال لي صاحبي : هذا أحمد فتحي الملقب بشاعر الكرنك ، ينزل في غرفة مجاورة لي في هذا الفندق ..

كان أحمد فتحي قد عاد إلى القاهرة حينذاك واستقر فيها - بلا عمل - بعد أن عمل سنوات في إذاعة إحدى الدول الخليجية .. وقال لي صاحبي إن «شاعر الكرنك» عاد من هناك بقليل من المال، ولكنه يبسط يده ببذخ كأنه من أصحاب الملايين ، ويجلس كل ليلة في «بار الفندق» يشرب كثيراً ، ويدخن كثيراً ، ويسهر الليل بطوله وعرضه ، ويعيش حياته بين السهر ليلاً والنوم نهاراً ..

ولم يكن «شاعر الكرنك» أيامئذ يزيد على الخامسة والأربعين من عمره ، إلا أنه يبدو كأنه في الخامسة والستين من عمره ، لفرط إسرافه على نفسه في السهر والشراب والدخان ، وإنفاقه من صحته بغير حساب ، فضلاً عن إنفاقه المال إنفاق من لا يبالي بما يجيء به الغد !

رأيت «شاعر الكرنك» بعد ذلك عند صديقه وصديقنا الشاعر «صالح جودت» في المؤسسة الصحفية التي أعمل بها - دار الهلال - وجلست إليه في مكتب «صالح جودت» مرتين أو ثلاثاً ، وكان يحضرنا أحياناً الشاعر عبد الرحمن صدقي ، وأحياناً الأديب الفنان أنور أحمد الذي أدى دور الزعيم مصطفى كامل باشا في فيلم سينمائي حمل اسم هذا الزعيم وشاهده جمهور

الخمسينيات ..

أما آخر مرة شاهدت فيها شاعر الكرنك فلم تزد على لحظة في مدخل دار الهلال بعد أن غنت له أم كلثوم قصيدته التي لحنها رياض السنباطي ، وبدايتها :

أنا لن أعود إليك مهما استرحمت دقات قلبي ..

أنت الذي بدأ الملالة والصدود وخان حبي !

.. وما زالتْ هذه القصيدة تذاع ويطلبها المستمعون من برامج الإذاعة حتى الآن .. ولكن هذه نهاية القصة ، فقد توفي أحمد فتحي بعد أن غنت له أم كلثوم هذه القصيدة بمدة قصيرة أنفق خلالها أجره الذي تقاضاه عن القصيدة ، وهو خمسون جنيهاً مصرياً ، وكان أجراً جسيماً في حينه!..

اشتهر أحمد فتحي بلقب «شاعر الكرنك» بعد أن غنى له محمد عبد الوهاب قصيدة الكرنك التي يقول في مطلعها :

حلم لاح لعين الساهر ... وتهادى في خيال عابر

... وكانت هذه القصيدة (سنة ١٩٤١) حدثاً فنياً مشهوداً ، ولبثت الإذاعة تبثها بلا انقطاع حتى انصرف عنها الجمهور بعد سنوات ..

ظن أحمد فتحي بعد أن غنى عبد الوهاب قصيدته هذه أنه سيواصل غناء قصائده كما تفعل أم كلثوم مع قصائد أحمد رامي مثلاً ، ولكن عبد الوهاب أغلق أبوابه في وجه الشاعر المتفائل، وصدمه بانصرافه عنه ، فانهارت أحلامه التي راودته وقال يومئذ إن الزجال الغنائي «حسين السيد» هو الذي أساء إليه عند عبد الوهاب وأغراه بالانصراف عنه ، وكان عبد الوهاب يستجيب لكلام حسين السيد لأنه ينظم له الأغاني مجاناً ، بل يزيد عليها إهداءه لعبد الوهاب أقفاص الفواكه والطيور ، لأن حسين السيد كان من تجار الطيور والفاكهة ، وكانت أقفاصه المليئة بالمانجو والتفاح والكمثرى والحمام والدجاج لا تنقطع عن بيت عبد الوهاب ! ..

هكذا قيل وقتذاك ، وهكذا قال أحمد فتحي ، وامتلأ يأساً من عبد الوهاب ،

وضاع ذلك الأمل الذي بعثته فيه قصيدة «الكرنك» التي كتبها وهو جالس أو واقف بين أطلال معبد الكرنك في مدينة الأقصر الأثرية المشهورة .

وكان أحمد فتحي قد أقام في الأقصر مدة ، لا سائحاً يتأمل الآثار ويستوحيها ، ولكن موظفاً مطروداً من القاهرة على إثر معركة بينه وبين رئيسه في العمل ..

ذلك أن أحمد فتحي كان مدرساً في مدرسة «الفنون والصنائع» بحي العباسية في القاهرة ، ولم يصل إلى هذه الوظيفة إلا بصعوبة بعد أن تخرج في مدرسة الفنون التطبيقية ، وكانت في عهدها القديم مدرسة متوسطة ، وهي الآن كلية تابعة لجامعة حلوان ، واضطر قبل أن يظفر بهذه الوظيفة أن يعمل كاتباً في جمرك الإسكندرية ثم ساعده بعض ذوي النفوذ فحصل على وظيفة التدريس بتلك المدرسة ...

انغمس شاعر الكرنك في الحياة الليلية حتى أضناه السهر مع الدخان والشراب وما بينهما، واهتزت أعصابه فأصبح حاد التصرفات والألفاظ ، فلم يكد «ناظر المدرسة» يوجه إليه بعض الملاحظات حتى اشتبك معه في معركة حامية انتهت بقرار من وزير المعارف بنقله مغضوباً عليه إلى الأقصر ، وبينها وبين القاهرة مسيرة أربع وعشرين ساعة بقطار السكة الحديدية «نصف السريع أو نصف البطيء» !.

يقول صديقنا الشاعر صالح جودت رحمه الله ، في كتابه الموجز عن شاعر الكرنك :

« من وحي هذه الأحجار الجاثمة ، والأطلال القائمة ، نظم قصيدته «أنشودة الكرنك» التي أصبحت أظهر أعمال حياته في نظر الناس .. ومن يدري لعله لو لم يذهب إلى الأقصر ، ولو لم يستوح هذه الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة ، ما عرف الناس شيئاً من أمره ، ولا سمعوا بيتاً من شعره » !

لم يجد أحمد فتحي شيئاً يعمله بعد فراغه كل يوم من التدريس بالمدرسة الصناعية إلا الطواف بتلك الأطلال في قصر «آمون» الذي سماه العرب

«الخورنق» وسماه السيّاح الأوروبيون «الكرنك» وهو تحريف اسم «الخورنق» الذي أطلقه عليه العرب تشبيهاً له بقصر الخورنق المعروف في بلاد العرب قديماً..

وسهر ليلة عند الخورنق أو الكرنك، ثم عاد إلى مسكنه وقد استوحى الأطلال حلماً من أحلام الشعر، وانطلق يكتب ذلك الحلم في أنشودة شعرية، من بحر «الرمل» - بفتح الميم - مقسمة إلى كوبليهات، وكأنه دون أن يقصد، يعدها للتلحين والغناء:

حلـــم لاح لعـــين الـــساهر ... وتهـــادي في خيـــال عـــابر

وهفـــا بيـــن ســـكون الخـــاطر ... يـــصل المـــاضي بـــيمن الحـــاضر

طـــاف بالـــدنيا شـــعاع مـــن خيـــالي ... حـــائر يـــسأل عـــن سر الليـــالي

يـــا لـــه مـــن سرّهـــا البـــاقي ويـــالي ... لوعـــة الـــشادي ووهـــم الـــشاعر

.. اكتملت القصيدة عشرة «كوبليهات» ولم يفكر الشاعر في إرسالها إلى الإذاعة لكي تأخذ طريقها إلى هذا الملحن أو ذاك، ثم إلى هذا المطرب أو ذاك ممن تتعامل معهم الإذاعة باعتبارهم «معتمدين» رسمياً من لجان الاستماع التي كان من أعضائها أم كلثوم وعبد الوهاب..

في ذلك الوقت كان الشاعر قد بلغ الحادية والأربعين من عمره دون أن يغني له أحد المطربين أو المطربات، إلا «محمد صادق» وهو مطرب متوسط الشهرة، مع أن الأمنية الكبيرة التي يرى الشاعر نفسه جديراً بتحقيقها هي أن يغني شعره محمد عبد الوهاب كما غنى شعر زميله خريج مدرسة الفنون التطبيقية «على محمود طه» فصار هذا الشاعر بين يوم وليلة أشهر الشعراء عند الجمهور، وانتشرت قصيدته «الجندول» على ألسنة الشبان والشابات في كل مكان..

وفي هذا الوقت بالذات جاءته رسالة من صديقه الأديب أنور أحمد - وكيل النائب العام المقيم في القاهرة - وكأنما نبهته الرسالة إلى شيء كان غائباً عنه،

فكيف لم يرسل الشاعر قصيدته الأقصرية هذه إلى الإذاعة المصرية في القاهرة، لعله يتلقى أجراً عن بعض القصائد أو عن واحدة منها فقط، فتنفرج ضائقته المالية ؟! وكان أجره عن القصيدة في سنة ١٩٤٠ ثلاثة جنيهات، ولم يكن أجراً ضئيلاً، فالجنيه في ذلك الحين كان يساوي مائة من جنيهات الأيام الراهنة ! ...

تردد الشاعر قليلاً ثم حزم أمره وأرسل قصيدته إلى سعيد بك لطفي مدير الإذاعة المصرية، وكان سعيد معجباً بالشاعر مشجعاً له، وقد مهد له من قبل الطريق إلى ميكروفونها ليلقي فيه بعض أشعاره ..

قرأ سعيد بك لطفي - وهو شقيق أحمد لطفي السيد باشا الملقب بأستاذ الجيل - قصيدة الشاعر، واتصل بمحمد عبد الوهاب وقرأها عليه، وقال له إنها - من وجهة نظره - تبدو كقصيدة «الجندول» التي نالت نجاحاً جماهيرياً واسعاً .

قال عبد الوهاب - بعد أن سمع القصيدة، إنها - فعلاً - تصلح للغناء ولكن بعد إجراء تعديلات في بعض ألفاظها، وحذف معظم كوبليهاتها العشرة .

أعاد سعيد بك لطفي قصيدة الكرنك إلى أحمد فتحي في الأقصر وطلب إليه إدخال التعديلات المطلوبة، ولكن لم يخبره أن عبد الوهاب هو الذي سيغنيها !

سارع الشاعر إلى إجراء التعديلات على قصيدته وانتظر أن ترسل إليه الإذاعة أجرها وقدره ثلاثة جنيهات !

وذات ليلة كان يجلس في المقهى وحيداً، وإذا بالراديو يعلن أن عبد الوهاب سيغني في تلك الليلة أغنية جديدة تسمى «أنشودة الكرنك» !

لم يعرف الشاعر أن هذه أنشودته إلا بعد أن غنى عبد الوهاب الشطر الأول من البيت الأول : «حلم لاح لعين الساهر» .. وفاته في غمرة الدهشة أن يتبين أن المذيع قد ذكر اسمه كمؤلف لهذه الأنشودة !

فجأة وجد أحمد فتحي نفسه وقد صار من أشهر مؤلفي الأغاني، وتلقى من الإذاعة خمسين جنيهاً ثمن أنشودة الكرنك، لأن الذي غناها عبد الوهاب وليس مطرباً آخر من فئة الجنيهات الثلاثة !

وسافر أحمد فتحي إلى القاهرة باحثاً عن «واسطة» تنقله إلى القاهرة ليكون دائماً على مقربة من الإذاعة ومن عبد الوهاب ، وربما أم كلثوم أيضاً ، وظفر بعد جهد بنقله إلى «الفيوم» وهي تبعد عن القاهرة مسافة ساعتين فقط بالسيارة بينما تبعد الأقصر أربعاً وعشرين ساعة بالقطار ..

لقد ظن الشاعر أن أنشودة الكرنك يمكن أن تفتح له أبواب الوظائف الدسمة ، ولكنه لم يحصل إلا على وظيفة «أمين متحف السكة الحديد».. وهي خير من وظيفته القديمة على كل حال!..

نظم الشاعر قصيدته الجديدة وقدمها إلى عبد الوهاب ، متوسلاً إليه بشفاعة صديقه سعيد بك لطفي مدير الإذاعة ، ولكن عبد الوهاب رفض هذه القصيدة كما رفض كل قصيدة أخرى تقدم بها إليه الشاعر برغم شفاعة سعيد لطفي ..

عندئذ قال الشاعر : لن أعرض أي شيء آخر على محمد عبد الوهاب فقد ثبت لي «فساد ذوقه» في الشعر ، ويكفيه أن يغني لصديقه تاجر الفاكهة والدواجن حسين السيد ، وربما لمأمون الشناوي أيضاً وهو مجرد زجال ! ..

انهارت أحلام الشاعر في الثراء والمجد عن طريق تأليف الأغاني ، وأدرك أنه لن يبلغ شهرة أحمد رامي ولا شهرة على محمود طه ، ولن يستطيع مجاراة حسين السيد ومأمون الشناوي في تأليف الأزجال لعبد الوهاب ، فاتجه إلى فريد الأطرش وأعطاه قصيدة تقول :

يـــا لعينيـــك ويـــا لي ... مـــن تـــسابيح خيـــالي
فـــيهما ذكـــرى مـــن الحـــب ... ومـــن شـــهد الليـــالي

.. مضت مدة دون أن يعرف مصير القصيدة ثم التقى برياض ذات ليلة فقال له رياض إن أسمهان أعطته قصيدته «يا لعينيك ويا لي » ليلحنها لها ، فطار الشاعر من الفرح ، فها هو ذا باب الأمل ينفتح أمامه من جديد !

لكن باب الأمل أغلق مرة أخرى بعد أن غنت أسمهان هذه القصيدة ، وفشل الشاعر فشلاً ذريعاً في الوصول إلى بلاط أم كلثوم في ڤيللتها بالزمالك ، الموصدة الأبواب !

كانت الحرب العالمية الثانية قد اشتدت معاركها في تلك الآونة ، والتحق بخدمة قوات «الحلفاء» - كما كانوا يسمونها - كل من كان يجيد الإنجليزية في مصر ، ومن بينهم شاعرنا هذا الذي كان يجيد الإنجليزية .

وبعد الحرب عين مترجماً ومذيعاً بالإذاعة العربية في لندن ، وقضى هناك عامين ، ثم ترك الإذاعة وتقلب في الأعمال الحرة حتى إنه افتتح هناك مكتباً للاستيراد والتصدير ! ..

لم يفلح الشاعر في وجهته الجديدة هذه ، فعاد إلى مصر وليس في جيبه من المال ما يكفيه شهرين أو ثلاثة ، وكان من الممكن أن تطحنه الأزمة طحناً لولا أن قدره أمير عربي كريم تقديراً خاصاً وأعفاه من مذلة الحاجة .

ولكن الشاعر البوهيمي الذي نقل مقر إقامته من مصر إلى البلد العربي ، لم يستقم هناك على الجادة ، فرفضوا أن يجددوا له الإقامة .. وعاد مرة أخرى إلى مصر وكأنه مطرود من هناك ، بل كان مطروداً فعلاً ! ..

عاد بثروة قليلة ، وأقام في فندق كارلتون بجوار البنسيون الذي حدثتك عنه، وأنفق بلا حساب وصارت الغرفة رقم ١٤ من ذلك الفندق مزاراً لأصدقائه، ولكن المال تبخر من يديه بسرعة، وانفضّ عنه أصدقاؤه ، ونسوا الغرفة رقم ١٤ وصار عاجزاً عن الوفاء بأجرتها كل ليلة، فضلاً عن عجزه عن ثمن الطعام والشراب !

ووسط هذا الضنك نظم قصديته التي أولها : «أنا لن أعود إليك» ونشرتها جريدة الأهرام ، وإذا برياض السنباطي يتصل به ويبشره بأن قصيدته هذه نالت إعجاب أم كلثوم وأنه - أي السنباطي - سيلحنها لها ! ..

قبض الشاعر ثمن قصيدته خمسين جنيهاً فأنفقها في ساعات ، وعندما جلس قبالة الراديو ليسمع أم كلثوم تغني قصيدته لأول مرة في حفلتها الشهرية كان مفلساً تمام الإفلاس ، مفتقراً إلى ما يكفيه من الطعام والشراب !

لقد تهدم الشاعر معنوياً وجسدياً ولم يعد له في الحياة مأرب ولا هدف ، فلم تفلح قصيدته التي غنتها أم كلثوم في انتشاله من الهوة التي تردّى فيها ، وصار

أطلالاً كقصر الخورنق أو قصر الكرنك ، وصار بعضهم يسميه «شاعر الخورنق» سخرية أو إشفاقاً ، أو إعجاباً تختلط فيه السخرية بالإشفاق ! ..

وفي إحدى ليالي شهر يوليو ؛ تموز سنة ١٩٦٠ داهمته أزمة قلبية وهو راقد على فراشه في الغرفة رقم ١٤ بالفندق ، فحاول أن يستنجد بطبيب يعرفه ، ولكن الطبيب لم يصل إلا بعد أن فارق الشاعر الحياة .

كانت سلسلة طويلة من الفشل تلك التي اختنق بها الشاعر منذ عمل في الجمرك ثم في المدارس الصناعية ثم في متحف السكة الحديدية ، ومنذ غني عبد الوهاب قصيدته «الكرنك» ورفض أن يغني له قصيدة أخرى ، ثم بعد أن غنت له أم كلثوم إحدى قصائده ...

ترى .. ماذا كان يحدث للشاعر لو أن عبد الوهاب لم يغلق أبوابه في وجهه بعد قصيدة الكرنك؟! ..

إن مأساة الشاعر أحمد فتحي كلها تعلقت على إجابة هذا السؤال ، ولما غنت له أم كلثوم كان قد وصل إلى النهاية ، ووراءه سبعة وأربعون عاماً عاشها يتقلب على الجمر ، من مصر إلى شمال إفريقيا إلى لندن إلى الخليج إلى الغرفة رقم ١٤ التي انسدل فيها عليه الستار الأخير ! .

غنائيات أحمد فتحي

•

كانت لقصائد أحمد فتحي بما تحمله من موسيقا عذبة ، وكلمات ممتوسقة دور كبير في أن يتغنى بها عدد كبير من مطربي ومطربات عصره منذ ثلاثينيات القرن العشرين ، وبلغت ذروة تلك الغنائيات بغناء الموسيقار محمد عبد الوهاب لقصيدته «الكرنك» سنة ١٩٤١ ، وغناء الموسيقار رياض السنباطي لقصيدة «فجر» سنة ١٩٤٤ ، وغناء كوكب الشرق أم كلثوم لقصيدته «قصة الأمس» سنة ١٩٥٨.

والشيء الملفت للنظر أن صداقته الحميمة للموسيقار رياض السنباطي أثمرت تلحينه وغناءه لعدد كبير من قصائده أصبحنا لا نكاد نسمعها، ولا ندري مصيرها، هل توجد في سجلات الإذاعة ، أم ضاعت واختفت؟ ومنها قصائد «النيل» ، «همسات» ، و«حديث عينين» ، وبصرف النظر عن أزجاله بالعامية التي تغنى بها عدد من المطربين والمطربات، فإن قصائده المغناة على لهاة أسمهان «حديث عينين» سنة ١٩٣٩ ، ولور دكاش «الأيام» ، وغيرها قد سجلت اسمه كشاعر غنائي مرموق ترك بصماته على تاريخ الغناء المصري والعربي المعاصر ، ويكفي أننا حتى الآن مازلنا نطرب لغنائياته الشعرية بأصوات عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، ورياض السنباطي ، وأسمهان .

وقد روى لنا الباحث القدير د. نبيل حنفي محمود حكاية أحمد فتحي مع الشعر الغنائي، ودوره في الغناء المصري والعربي المعاصر ، فقال: «لست أدري في أي عام من خمسينيات القرن العشرين عندما استمتعت من إذاعة القاهرة بعد ظهر يوم خميس، وقبل نشرة الثانية والنصف إلى صوت محمد عبد الوهاب يردد بأسى غامض أغنيته الخالدة «الكرنك» ، فشفني حزن وشجن عجيبان، لم أدر يومها سببًا لهما ، هل كان لحن محمد عبد الوهاب للأغنية والذي جاء من مقام الكرد الشرقي المغرق في الشجن هو السبب؟ أم أن كلمات أحمد فتحي شاعر

الأغنية من نوعية «طاف بالدنيا شعاع من خيالي / حائر يسأل عن سر الليالي» التي تلهب المشاعر هي مصدر الحزن والشجن؟ أم تراه صوت محمد عبد الوهاب الذي بلغ في عام ١٩٤١ - ويوم أن سجل هذه القصيدة للإذاعة - أوج تألقه ونضجه هو ما أحزنني وأشجاني؟ ولكنني ويتقدمي في العمر وتفتح مداركي، أيقنت - ومنذ عهد ليس بالقريب - أن ما ينتابني حتى الآن من حزن وشجن حال استماعي لتلك القصيدة الرائعة ، إنما يرجع إلى تلك الأسباب الثلاثة مجتمعة ، وبشكل ما أصبح اسم ناظم تلك القصيدة: الشاعر أحمد فتحي مرتبطًا في مستويات الوعي عندي بالأسى والحزن والشجن.

النشأة والتكوين:

ولد أحمد فتحي بالإسكندرية في الثاني من أغسطس عام ١٩١٣م ، كان والده الشيخ إبراهيم سليمان - وهو من علماء الأزهر - ينحدر من أسرة فايد ذات الأصول العربية ، والتي استقرت بقرية كفر الحمام، وهي إحدى قرى مركز القنايات بمحافظة الشرقية، وقد انتهى المطاف بالشيخ إبراهيم في منصب شيخ معهد الإسكندرية الديني حال ميلاد ابنه أحمد فتحي ، كانت والدة أحمد فتحي هي الزوجة الثانية للشيخ إبراهيم ، وقد تزوجها الشيخ بعد وفاة زوجته الأولى، ولما كان الشيخ إبراهيم وفديًا ، فقد تفتحت عينا الصغير أحمد فتحي في سنوات ثورة ١٩١٩م ، وما تلاها من سنوات على غارات رجال الشرطة الليلية ، وهي تقتحم منزل والده ، وذلك بسبب ما يردده الشيخ إبراهيم في مجالسه من هجوم على القصر.

تدرج الفتى أحمد فتحي في تعليمه بالإسكندرية من المدرسة الابتدائية وحتى المدرسة الثانوية ، ولكنه أخفق في الحصول على شهادة «الكفاءة» بعد وفاة والده في عام ١٩٢٨م ، حيث مثلت وفاة الشيخ إبراهيم سليمان نقطة التحول الأولى في حياة أحمد فتحي، وقد عبر البعض من أقاربه عن هذا التحول بقولهم: «إنه - بعد وفاة والده - انحرف عن جادة الصواب، وبدأ يمارس لذاته الحسية، ويصاحب الكأس وهو ابن خمسة عشر عامًا ، فتعثر في دراسته، ولم يظفر

بشهادة «الكفاءة» على تواضعها[1].

وإزاء ذلك التحول.. ألحقه خاله: أحمد حسن – الذي كان يعمل أيامها مديراً لجمرك الإسكندرية بمدرسة الفنون التطبيقية ، حيث حصل على دبلوم صناعي متوسط بتخرجه منها عام ١٩٣٠م ، ليقوم خاله بتعيينه بعد ذلك في إحدى الوظائف بجمرك الإسكندرية.

ورث أحمد فتحي موهبته كشاعر عن أسرته ووالده، فقد عرف عن آل فايد حبهم للشعر وقرضهم بطبيعتهم له جزلا سليم الأوزان والقوافي ، وأما والده: الشيخ إبراهيم سليمان فقد أثر عنه حب الأدب ومعالجة الشعر، حيث تشير المصادر التي تحدثت عن أحمد فتحي إلى اقتناء والده لمكتبة طيبة، وإلى كونه – أي الوالد – شاعراً من شعراء ثورة ١٩١٩م، وهكذا تضافرت عوامل الوراثة والتعلم – ممثلا في مطالعته للآثار الشعرية – لتخلق من الفتى الذي عرف الضياع مبكرًا شاعرًا عبقرياً.

أبوللووالفناء:

تفتحت موهبة أحمد فتحي الشعرية مع ظهور جماعة أبوللو من الشعراء الرومانسيين والعاطفيين في بداية الثلاثينيات من القرن العشرين، أسس تلك المدرسة ، وكان رائدها أحمد زكي أبو شادي، وضمت من الشعراء أسماء مثل: خليل مطران ، إبراهيم ناجي، علي محمود طه ، صالح علي الشرنوبي، محمود حسن إسماعيل ، وصالح جودت، تمثلت تلك السمات الفنية لإبداعات تلك الجماعة في: الإيمان بذاتية التجربة الشعرية – الولع بالطبيعة– الميل لاستخدام الرمز وبعض الكلمات الأعجمية ، بالإضافة إلى التشاؤم والاستسلام للأحزان.

ومن الواضح أن تلك السمات لاقت هوى في نفس أحمد فتحي، أو كانت هي بذاتها معبرة عما يختلج في نفسه من مشاعر، وقد بعث أحمد فتحي بأولى قصائده إلى مجلة «أبوللو» – لسان حال الجماعة – في بداية عام ١٩٣٤م ، وعندما كان مدرسًا بمدرسة الصناعات بمدينة السويس، كانت القصيدة التي نشرت في عدد أبريل ١٩٣٤م من مجلة «أبوللو» تبدأ بالأبيات التالية:

(١) صالح جودت: شاعر الكرنك أحمد فتحي كتاب الهلال ديسمبر ١٩٧٣م.

نـوحي عـلى قلـق الغـصون ورجعـي
يـا طـير آهـات الفـؤاد الموجـع
واستودعي الألحـان مـن حـرق النـوى
وشـجونه مـا شـئت أن تـستودعي

ولما كانت قصائد شعراء أبوللو – ونظرًا لسماتهم الفنية – أصلح ما في الشعر للغناء ، فسرعان ما جرت أشعار أحمد فتحي على حناجر المطربين والمطربات ، حدث ذلك بعد عودته للقاهرة إثر نقله إلى مدرسة الفنون والصنائع بالعباسية.

ومن أوائل ما قدمته الإذاعة المصرية من أشعار أحمد فتحي المغناة، ثلاث من القصائد قدمت جميعها في عام ١٩٣٩م كانت قصيدة «وحي جديد» هي أول ما قدمت الإذاعة من شعر أحمد فتحي في عام ١٩٣٩م ، وقد أذيعت القصيدة التي لحنها وتغنى بها المطرب محمد بخيت بعد عشرين دقيقة من العاشرة مساء السبت ١٤/ ١/ ١٩٣٩م ، وجاءت الأبيات التالية في مستهل هذه القصيدة:

هـذه الـسمرة العجيبـة مـاذا ... راح يغـري بوصـفها الحـاني
أيـن شـعري منهـا وأيـن خيـالي ... هـي فـوق الخيـال والتبيـان
أنـا منهـا في مهـبط الـوحي مهـما ... عقـد الحـب في ذراهـا لـساني
غـير أني مـستلهم سـحر عينيـك ... للمعـاني ويـا لهـا مـن معـاني

وأما القصيدة الثانية وهي قصيدة «البطل» ، فإنها قصيدة وطنية من تلحين وغناء جلال حرب ، وقد قدمها الإذاعة للمرة الأولى في حفل أذيع على الهواء مباشرة من نادي التجارة العليا بالقاهرة، وفي العاشرة من مساء الأربعاء الأول من نوفمبر عام ١٩٣٩، جاءت تلك القصيدة في سياق مجموعة من الأغنيات.. اختلط معنى الوطنية بمفهوم الولاء لملك البلاد، وهو ما يلحظه القارئ في المقطع التالي من قصيدة «البطل» التي تغنى بها المطرب والملحن جلال حرب في الحفل المشار إليه هنا:

إنـــما أمـــضى لمجـــد الـــزمن
وأفـــــدى بحيـــــاتي وطنـــــي

ومليـــك النيـــل رب المـــنن
إن روحـــي يـــا مـــصر الخلـــود
ولفـاروق البقـاء ولواديـك الـسعيد

إن ما تضمنته الأبيات المتبقية من هاتين القصيدتين من صور وأخيلة ومعان قد لا يتوقف عندها القارئ المعاصر كثيراً ، ولكنه – أي القارئ المعاصر كثيرًا ، سوف يتوقف مطيلا التأمل والتفكر أمام مطلع القصيدة الثالثة التي قدمتها الإذاعة المصرية لأحمد فتحي في عام ١٩٣٩م ، وهي قصيدة «الأمل» التي لحنها وتغنى بها أيضاً المطرب والملحن «جلال حرب»، وقد ترنم جلال حرب بهذه القصيدة للمرة الأولى من الإذاعة المصرية في تمام العاشرة والربع من مساء أول أيام عيد الفطر المبارك لسنة ١٣٥٨هـ/ وهو يوم الأحد الموافق ١٢/ ١١/ ١٩٣٩م ، وفيما يلي أبيات مطلع هذه القصيدة والتي تضمنها نصها المنشور بالصفحة السابعة من العدد رقم (٢٤٣) من مجلة «الراديو المصري» ، والصادر في ١١/ ١١/ ١٩٣٩م.

وتهـــادى في خيـــال عـــابر
وهفـــا بـــين ســـكون الخـــاطر
راحـــت الأرواح ظمـــأى تـــستقي
مـــن ســـنا طلعتـــه في الأفـــق
في مـــــواح وابتـــــسام
وانـــــشراح وهيـــــام

وسوف يفاجأ القارئ المعاصر – الذي استمع كثيراً إلى قصيدة «الكرنك» بصوت محمد عبد الوهاب – بأن الشطرات الثلاث الأولى في قصيدة «الأمل» وهي نفسها ومع إبدال كلمة واحدة قد جاءت في مستهل قصيدة «الكرنك» ، والكلمة الوحيدة التي أبدلت في هذه المقاطع الثلاثة هي كلمة «كلما» في الشطرة الأولى «كلما لاح لعين الساهر» الذي بدأ به أحمد فتحي قصيدة «الأمل» واستبدلها لتصبح «حلم» في شطرة استهلال «الكرنك» ، والتي أصبحت «حلم لاح لعين الساهر» ، ولسنا نعلم أسباب أحمد فتحي في ذلك ، ولا يمكن أن يعزى ذلك لعوار في موهبته، فهو كشاعر

أكبر من أن ينسب إليه أمر كهذا ، ولكنها – فيما أعتقد – سمة مشتركة بين كثير من المبدعين ، تتمثل في استعادة بريق بعض إبداعاتهم بالعودة إليها أو اجترارها في بعض أعمالهم الجديدة.

لم تكن هذه القصائد الثلاث هي كل إسهام أحمد فتحي بشعره في الغناء المصري خلال عقد الثلاثينيات ، وإنما واكبتها قصيدة رابعة من عيون شعره، ومن أجمل ما أثرى به الشعر الغناء من قصائد، ونعني بذلك قصيدة «حديث عينين» التي أهداها أحمد فتحي للمطربة الشهيرة : آمال الأطرش المعروفة بأسمهان ، وقد أثبت أحمد فتحي ذلك الإهداء في ديوانه الوحيد «قال الشاعر» حيث قال عن ذلك: «إن الشاعر أهداها (أي القصيدة) إلى أسمهان في مارس عام ١٩٣٨م ، فغنتها لحساب الإذاعة البريطانية، على أن تذاع من إذاعة لندن وحدها»[١].

لقد أطلقت هذه القصائد المغناة اسم أحمد فتحي في عالم الغناء المصري، فأقبل أهل الغناء على شعره وزجله، يتنقون منهما ما يوافق غناءهم ، حتى شهد عام ١٩٤٠م تقديم الإذاعة المصرية لست من الأغنيات التي اتخذت من شعر أحمد فتحي وزجله، وفيما يلي أسماء تلك الأغنيات مقرونة بأسماء من لحنوها ومن تغنوا بها ، بالإضافة إلى تاريخ الإذاعة الأولى لكل منها: (حنيها: عبده قطر – رجاء عبده ، ١٩/ ١/ ١٩٤٠م) ، (مناجاة في الفجر : لحن وغناء حليم الرومي، ١٣/ ٢/ ١٩٤٠) ، (شدا وترنم صداها: محمد القصبجي – إبراهيم عثمان ، ٦/ ٥/ ١٩٤٠م) ، (عمرك ما تقدر تنساني: لحن وغناء حليم الروي ، ١٢/ ٥/ ١٩٤٠م) ، (طيور المساء : لحن وغناء رياض السنباطي، ١٠/ ٧/ ١٩٤٠م) ، (سهاد من غناء آمال حسين ، ١٥/ ٧/ ١٩٤٠م) ، وتبرز بين هذه المجموعة من القصائد والأزجال المغناة قصيدة (مناجاة في الفجر) بإحكام صياغتها وصدق تعبيرها عن إبداعات شعراء أبوللو ، ومن هذه القصيدة نذكر الأبيات التالية:

إن رأيت الندى ينبه زهرا ... ملأ الحب جفنه أحلاما
ورأيت الغصون ماست على النور ... وضمت أعطافها الأنساما
وسمعت الأطيار تلقى إلى الفجر ... تحايا عواطرا وسلاما

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص١٢٩.

فـاذكري سـاهرا يعذبـه الـشوق . ويـــأبى لعينيـــه أن تنامـــا

لم تكن أحداث عام ١٩٤٠م كلها برداً وسلاماً على أحمد فتحي، فقد عاش في الأيام الأخيرة من صيف ذلك العام قصة حب فاشلة ، ويبدو أن أخبار الأغنيات التي اتخذت من أشعاره وأزجاله لم ترق للمسؤولين في وزارة المعارف ، حيث صدر قرار بنقله في مطلع شتاء ذلك العام إلى الأقصر للعمل كمدرس بمدرستها الصناعية، وبالرغم مما عاناه في الأقصر من هموم الغربة وعذابات الذكريات ، إلا أنه أنجز على ضفاف نيلها وبين أطلال آثارها قصيدته الخالدة «أنشودة الكرنك» ومجموعة من أهم قصائده ، وعندا أتم «أنشودة الكرنك» ، فإنه بعث بها إلى مراقب عام الإذاعة : محمد سعيد لطفي بك ، الذي أعطى القصيدة بدوره للموسيقار محمد عبد الوهاب ، لتقدم الإذاعة المصرية في العاشرة من مساء أول أيام عيد الأضحى المبارك لسنة ١٣٥٩ هـ ، وهو يوم الأربعاء الموافق ٨ يناير من عام ١٩٤١ اللحن العبقري الذي وضعه محمد عبد الوهاب لتلك القصيدة ، فخلد بذلك القصيدة وصاحبها في صدارة إبداعات العصر الذهبي للغناء المصري.

جاء نفي أحمد فتحي للأقصر بنتائج معاكسة ، لما أرادته وزارة المعارف، فبالرغم مما عاناه من آلام نفسية جراء ذلك النفي، وقد عبر عن معاناته في رسالة بعث بها من الأقصر إلى صديقه الفنان أنور أحمد ، وجاء فيها: «تصور أنني أنفقت هنا أيامًا ثمانية، كانت في حساب قلبي أعواماً ثمانية»[1].

وبدلاً من أن يعمل إبعاده عن أجواء القاهرة على وقف أو خفض الطلب على أشعاره لتحويلها إلى أغنيات، فإن ما قدمته الإذاعة المصرية خلال عام ١٩٤١م من أغنيات اتخذت من أشعاره وأزجاله قد بلغ تسعة عشر أغنية، وهو عدد يجاوز ثلاثة أمثال ما أنتجته الإذاعة من أغنيات له في عام ١٩٤٠م ، وفيما يلي بيان تلك الأغنيات التي قدمتها الإذاعة المصرية في عام ١٩٤١ م من أشعار وأزجال أحمد فتحي.

وسوف يتضمن هذا البيان أيضًا أسماء من لحنوا تلك الأغنيات ومن تغنوا بها، بالإضافة إلى تاريخ الإذاعة الأولى لكل أغنية:

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص٤٠

- أغنية : (اذكري عهدنا : حليم الرومي – رجاء عبده ، ٤/ ١/ ١٩٤١).
- أنشودة الكرنك : لحن وغناء محمد عبد الوهاب ، ٨/ ١/ ١٩٤١.
- ليلة : لحن وغناء حليم الرومي، ١٨/ ١/ ١٩٤١.
- أيها القلب: رياض السنباطي – صالح عبد الحي، ١/ ٢/ ١٩٤١م.
- نشوة: لحن وغناء محمد صادق ، ٣/ ٣/ ١٩٤١م.
- لما التقينا من غير ميعاد : حليم الرومي – رجاء عبده، ٤/ ٢/ ١٩٤١م.
- تداري ليه عني حبك: لحن وغناء فكري ، ٤/ ٢/ ١٩٤١م.
- أشواق: رياض السنباطي – نجاة علي ، ٢٠/ ٥/ ١٩٤١.
- النيل مجد الزمن: لحن وغناء رياض السنباطي، ٢٢/ ٥/ ١٩٤١م .
- بيجافي ليه : لحن وغناء جلال حرب، ٢٩/ ٦/ ١٩٤١م.
- عطفتي ليه بعد جفاكي : لحن وغناء حليم الرومي، ١٣/ ٧/ ١٩٤١م.
- إن رأيت الندى ينبه زهرا : لحن وغناء حليم الرومي، ١٣/ ٧/ ١٩٤١م.
- استرحام: لحن وغناء ملك محمد ، ١٩/ ٨/ ١٩٤١م.
- حديث عيني: رياض السنباطي – عصمت عبده ، ٢٥/ ٩/ ١٩٤١م.
- غرام الربيع: ثروة كيجوك – أمال حسين ، ٢٦/ ١٠/ ١٩٤١م.
- إليها: لحن وغناء محمد صادق ، ٧/ ١١/ ١٩٤١م.
- همسات: لحن وغناء رياض السنباطي ، ١١/ ١١/ ١٩٤١م.

- ذكريات : لحن وغناء عبد الغني السيد ١٦/ ١١/ ١٩٤١م.

ومن الجدير بالذكر أن الإذاعة المصرية كانت قد أشارت في برنامجها ليوم ٤/ ٢/ ١٩٤١م إلى ملحن ومؤدي طقطوقة «تداري ليه عني حبك» باسم الأستاذ فكري، ولم تفلح جهود البحث والتنقيب في مطبوعات الفترة المعاصرة لظهور الأغنية عن كشف الاسم الكامل للأستاذ فكري.

تميز هذا العدد الكبير من القصائد والأزجال من إبداعيات أحمد فتحي والتي تحولت في عام ١٩٤١م إلى أغنيات بالتنوع والثراء والقوة ، ويجيء التنوع والثراء من تعدد المقاصد التي عبرت عنها هذه الأغنيات، فالبرغم من أن معظمها حمل السمات التقليدية لإبداعات شعراء جماعة «أبوللو» فإن ثمة بعض منها تغنى بالوطن مثل: «النيل مجد الزمن» ، أو بتاريخه مثل: «الكرنك» ، بينما تغنى البعض الآخر بالطبيعة مثل: «إن رأيت الندى ينبه زهرا» و «غرام الربيع» أو بالمشاعر والعواطف مثل : «أشواق» و«ذكريات»، بينما تأتي قوة هذه الأغنيات من إحكام الصنعة ورفاهة الشاعرية، ولنأخذ المقاطع التالية من غنائيات أحمد فتحي التي قدمت في عام ١٩٤١ ، لنضع القول بتنوع وثراء وقوة الأشعار التي صيغت منها على المحك، ومن ذلك الأبيات الأولى في قصيدة «استرحام» ، حيث تصلح هذه القصيدة لاتخاذها نموذجًا للحالة الشعورية عند أحمد فتحي، وفيما يلي نقدم نص هذه الأبيات:

انظري لون شحوبي ... أنا شمس في غروب
ودّعت أفق مناها ... وانحنت نحو المغيب
ما تراها العين إلا ... ذهبا في الموج سالا
يحمل الشاطئ منها ... لمحات وظلالا
فإن لاح خميل ... للسني العابر مالا
يملأ الوادي فتونا ... وشجونا وخيالا
فاسمعي هاتف حبي ... وارحمي لوعة قلبي

ولنأخذ المقطع الأخير من قصيدة «على البحيرة» كنموذج لتغنى أحمد فتحي بالطبيعة في لوحات تتفجر بالجمال وتنبض بالحياة، وكأنها رسمت

بريشة فنان وليس بكلمات من نظم شاعر:

كلما أوفى على شط البحيرة
في أهازيج شبابي منه نبرة
وعلى وشى الروابي منه نضرة
لاحت الشمس على هام الربى
واكتسى المشرق لونا عجبا
عانق النرجس فيه الذهبا
فشدا الموج وغنى طربا
نبّهي يا طير نعسان الورود
وارتعي ما شئت في وادي الخلود
اصدحي في جانبيه بالنشيد
في تحاياك إلى الصبح الوليد

إن ثراء قصائد أحمد فتحي المغناة في ذلك العام (١٩٤١م) لم تشبها سوى شائبة واحدة ، وقد تمثلت هذه الشائبة في أن أزجاله المغناة لم تكن بقوة أشعاره، تلك القوة التي يلمسها القارئ فيما عرض هنا من مقاطع أخذت من بعض هذه القصائد، ولنضرب مثلا هنا على ذلك بالمقطع التالي من طقطوقة «رجعتي ليه بعد جفاكي» التي لحنها وتغنى بها الملحن والمطرب اللبناني حليم الرومي:

رجعتي ليه بعد جفاكي ... ما كنت قربت أنساكي
كنت أفتكر قلبك صافي ... ليّه وحدي
وأيام ما ألقاكي تجافي ... ويزيد وجدي
يصبر فؤادي على نار بعادي ... وأعيش بأملي في رضاكي

ومن الغريب أن الإذاعة المصرية أعادت تقديم الأغنية في سهرة الأحد ١٢/٧/١٩٤١م باسم «عطفتي ليه بعد جفاكي» ، وذلك بعد أن أبدل أحمد فتحي كلمة «رجعتي» في مفتتح الشطر الأول من البيت الأول بكلمة «عطفتي» ، وأيا ما كانت ملابسات إبدال هذه الكلمة، فإن القارئ أو

المستمع لهذا الصنف من غنائيات أحمد فتحي يخرج من ذلك بانطباع مفاده أن زجل الرجل لم يكن بمستوى شعره في أي وجه من وجوه الأفكار أو الصنعة أو الجزالة.

عود ثم اغتراب:

بلغ تقدم الألمان في الحرب العالمية الثانية الذروة بغزو روسيا في صيف عام ١٩٤١، وشهد أحد أشهر ذلك الصيف (سبتمبر ١٩٤١م) نقل أحمد فتحي ليعمل كمدرس بمدرسة الفيوم الثانوية الصناعية، وبانتقاله إلى الفيوم أصبح قريبًا من القاهرة ، وبات في إمكانه زيارة القاهرة على فترات متقاربة وغشيان منتدياتها والاختلاف إلى ملاهيها ، ليقع في مطلع عام ١٩٤٢ م في قصة حب جديدة مع مطربة شهيرة ، وليضيف إلى عذابات حبه القديم عذابات جديدة[١].

وبعد أن تنتهي القصة الجديدة كما انتهت سابقتها، شرع في صيف عام ١٩٤٢م في الزواج من فتاة قال عنها في خطاب بعث به إلى صديقه أنور أحمد: «إنها شيء جديد.. لون عجيب من ألوان الإنسانية الجميلة اللذيذة الوادعة، آية من آيات القسامة والوسامة والرقة والحنان، إنها ظل من رحمة الله يؤوب إليه اليائس والمحروم»[٢].

وقد انعكس قربه من القاهرة وعذابات حبه ومشاكل الزواج الذي لم يتم على إنتاجه من الأغنيات الإذاعية، حيث عبر في إحدى رسائله إلى صديقه أنور أحمد عما اعتراه بعد نقله إلى الفيوم ، فقال: «كرهت القاهرة.. ومللت حياتي بها ، إن كل ركن في العاصمة يثير دفينا من الشجن، ويهيج ساكنا من الذكرى»[٣].

لذلك انخفض عدد ما قدمته الإذاعة من مقطوعاته الشعرية أو الزجلية كأغنيات جديدة في عام ١٩٤٢م ليصل إلى سبع أغنيات فقط، وفيما يلي بيان هذه الأغنيات وأسماء من قاموا بتلحينها وأدائها ، بالإضافة إلى تاريخ إذاعتها الأولى:

---

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص٦٣.

(٢) صالح جودت: المصدر السابق، ص٩٣.

(٣) صالح جودت: المصدر السابق، ص٩٧.

- لما التقينا بعد الغياب: رياض السنباطي – نجاة علي . شدت نجاة علي بهذه الأغنية التي كانت من قالب المونولوج في حفل أقيم بمسرح حديقة الأزبكية ونقلته الإذاعة المصرية في مساء الأربعاء ٢٥/ ٢/ ١٩٤٢م.

- يا نسيم الضفاف: لحن وغناء رياض السنباطي ، قُدمت بمناسبة عيد الجلوس الملكي في ٦/ ٥/ ١٩٤٢م.

- هل تذكرين: لحن وغناء عبد الغني السيد ، ٢٧/ ٥/ ١٩٤٢م.

- أوهام: رياض السنباطي – فتحية أحمد ، ٢٤/ ٧/ ١٩٤٢م.

- ضفاف على النيل : لحن وغناء جلال حرب ، ٢٧/ ٧/ ١٩٤٢م.

- ما كانش يخطر على بالي: لحن وغناء أحمد عبد القادر ، ٢٩/ ٨/ ١٩٤٢م.

- حنين : أحمد عبد القادر ، حياة حمد ، ١٤/ ١٠/ ١٩٤٢م.

ولهذه الأغنيات السبع التي أنتجتها الإذاعة من إبداعات أحمد فتحي الشعرية والزجلية أكثر من دلالة ، وأول هذه الدلالات هو انخفاض عدد ما أنتج من شعره وزجله من أغنيات في عام ١٩٤٢ م ، وبعد نقله إلى الفيوم، ويمكن القول بأن ذلك الانخفاض في عدد الأغنيات التي أخذت من أشعار أحمد فتحي في ذلك العام إنما يرجع إلى اضطراب أحواله وتشتت ذهنه جراء عمله بالفيوم ، وتردده بين القاهرة والفيوم ، وأما ثاني تلك الدلالات فإنه يتمثل في تعدد واضطراب اهتماماته العاطفية ، وليس هناك ما هو أدل على ذلك من أنه تحدث إلى صديقه أنور أحمد في أحد الخطابات المتبادلة بينهما خلال صيف عام ١٩٤٢ عن مشروعه من الزواج من فتاة أطنب في وصف محاسنها ، بينما عاش في شهر فبراير من نفس العام بداية لقصة حب – ربما من جانبه – مع مطربة شهيرة ، وعندما دعت هذه المطربة للاستماع إلى شدوها على مسرح الأزبكية لإحدى أغنياته التي قدمها لها ، تهرب – كما ذكر في خطابه لصديقه – من حضور الحفل ، ولكنه لم يزف في خطاب آخر إلى صديقه نبأ عزمه على السفر إلى أحدى مدن الصعيد لمشاهدة عروس اختارتها شقيقته.

وتشير الدلالة الثالثة إلى أن شعره المغنى في ذلك العام كان صادقًا ومعبرًا عن حالته الشعورية والوجدانية، وليتأمل القارئ هذين البيتين من

قصيدة «ضفاف النيل» التي لحنها وتغنى بها جلال حرب ليتأكد من مدى صحة هذه الدلالة.

يا ضفاف النيل أقبلت إليك
أنشد الراحة والسلوى إليك
أداري لوعتي بين يديك
وأروي ظمئي من شفتيك

وأما الدلالة الأخيرة التي يبوح بها العدد الذي أنتجته الإذاعة في عام ١٩٤٢ من أغنيات اتخذت من أشعار أحمد فتحي، فإنها تتمثل في اهتمام مسؤولي الإذاعة الزائد بإنتاج أغنيات حتى من أشعار أحمد فتحي التي سبق للبعض أن لحنوها وتغنوا بها ، ومن ذلك أغنية «ما كاناش يخطر على بالي» التي لحنها وتغنى بها أحمد عبد القادر في ٢٩/٨/٢٩٤٢ ، ثم أوكلت الإذاعة مهمة تلحينها مرة أخرى إلى محمد القصبجي، وتغنت المطربة الكبيرة فتحية أحمد بلحن القصبجي للأغنية في مساء الاثنين ٢/ ١١/ ١٩٤٢ ، وكانت الإذاعة قد أعادت أيضًا تسجيل لحن رياض السنباطي لقصيدة «حديث عينين» بصوت المطربة الصاعدة – آنذاك – عصمت عبد العليم، والتي كانت تعرف أيامها باسم «عصمت عبده» ، وذلك بالرغم من أن المطربة الكبيرة أسمهان كانت قد سجلت هذه القصيدة ، وبلحن السنباطي أيضًا للإذاعة البريطانية في عام ١٩٣٨.

عندما أهل عام ١٩٤٣، لم يجد أحمد فتحي حلا لعذابات قصص حبه وزواجه الفاشلة سوى الرحيل للالتحاق بعمل سعى إليه في صفوف القوات البريطانية التي كانت تقاتل قوات المحور في شمال أفريقيا .. كان عمله الأول الذي التحق به في صفوف الجيش البريطاني هو وظيفة مفتش صحي[1].

جاءت مباشرته لتلك الوظيفة خلال شهر مايو من عام ١٩٤٣م ، وفي ولاية برقة الليبية ، ثم انتقل في شهر أغسطس من نفس العام ليعمل كضابط للجمارك في الجيش البريطاني بجهة طبرق من الأراضي الليبية ، كانت رسائله التي يبعث بها من جهات عمله إلى صديقه أنور محمد تفيض بالتعاسة

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص١٠٤.

والأسى ، وها هو يعبر عن ذلك بقوله في إحدى رسائله : «لقد أصبحت رجلا بلا ماض في المستقبل»[1].

لقد ألقت تلك المشاعر بظلالها على إنتاج أحمد فتحي الشعري، وما يتحول منه إلى غناء، وهو ما عبر عنه في رسالة أرسل بها كابوتزو القريبة من الحدود المصرية الليبية في الثلاثين من أغسطس عام ١٩٤٣م بقوله: «ويقابل هذا نقص هائل في المقدرة على التعبير، وحسبك أن تعلم أن كل إنتاجي الفني في هذه الحقبة الطائلة لم يكن أكثر من مقطوعتين غنائيتين ، إحداهما شعر والأخرى زجل دارج في موضوع واحد نظمتا في ليلة واحدة منذ أسبوع تقريبًا»[2].

إن مراجعة سجلات برامج لإذاعة خلال عام ١٩٤٣م تكشف أن مجموع ما قدمته الإذاعة من أغنيات جديدة لأحمد فتحي قد بلغ ست أغنيات ومن الواضح أن أغنيتين من هذه لأغنيات قد أشار إليهما أحمد فتحي في خطابه السابق الحديث عنه على أنهما من إبداعه في ذلك العام، ولربما كانت الأربع الباقيات من إبداعاته السابقة ، وفيما يلي بيان أسماء هذه الأغنيات الست وأسماء من لحنوها وتغنوا بها .. إضافة إلى تاريخ الإذاعة الأول لكل أغنية :

- ظنون : رياض السنباطي – فتحية أحمد ، ٢٦/ ٢/ ١٩٤٣.
- صوت السنين : رياض السنباطي – حياة محمد ، ٢٩/ ٧/ ١٩٤٣م.
- ساعة رضاك : رياض السنباطي: عصمت عبد العليم ، ٢٧/ ٨/ ١٩٤٣م.
- على البحيرة لحن وغناء جلال حرب ، ١/ ١١/ ١٩٤٣م.
- عتاب : محمد القصبجي – نجاة علي ١١/ ١١/ ١٩٤٣م.
- أنا يوم ما أشوفك : محمد القصبجي – عصمت عبد العليم، ١٦/ ١١/ ١٩٤٣م.

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص١١٢.

(٢) صالح جودت: المصدر السابق، ص١١٧.

إن تناقص أعداد ما اتخذ من إنتاج أحمد فتحي الشعري من أغنيات في عام ١٩٤٣ هو الملاحظة الأولى والأساسية التي تتبادر إلى ذهن المتأمل للبيان السابق لهذه الأغنيات ، ولكن تبقى هناك ملاحظ ثانية ومهمة حول هذه الأغنيات ، وتتمثل هذه الملاحظة في تحول القصيدة الجميلة «إلى البحيرة» إلى أغنية ، إذ أنه من المعروف وكما ذكر الشاعر والكاتب صالح جودت عن أحمد فتحي: أن الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب كان قد اعتذر خلال الشهور الأولى من عام ١٩٤٢م عن غناء هذه القصيدة ، وفيما يلي نقدم الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة:

ساحر ما تعشق الأرواح غيره
كلما أوفى على شط البحيرة
في أهازيج شبابي منه نبرة
وعلى وشى الروابي منه نضرة
لاحت الشمس على هام الربى
واكتسى المشرق لونا عجبا
عانق النرجس فيه الذهبا
فشدا الموج وغنى طربا
نبهي يا طير نعسان الورود
وارتعي ما شئت في وادي الخلود
واصدحي في جانبيه بالنشيد
في تحاياك إلى الصبح الوليد
إلى بلد الضباب

لم يطق أحمد فتحي قسوة اغترابه أثناء عمله مع الجيش البريطاني في مسرح العمليات بالأراضي الليبية ، فقفل عائدًا إلى القاهرة في شهر نوفمبر من عام ١٩٤٣م ، وبعد أن تبددت مدخرات عمله في الجيش البريطاني سعى صديقه محمد سعيد لطفي بك مراقب عام الإذاعة المصرية لدى سلطات الاحتلال البريطاني بالقاهرة لإلحاقه بعمل في هيئة الإذاعة البريطانية بلندن، فتمخض ذلك المسعى عن تعيين أحمد فتحي مذيعًا ومترجمًا للأخبار

بالقسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية منذ أواخر فبراير ١٩٤٤م .

وتشير وثائق الإذاعة البريطانية وخطابات أحمد فتحي نفسه إلى أنه استقال من عمله بالإذاعة البريطانية في شهر يونيو من عام ١٩٤٦م[١]، ولكنه فضل الإقامة بعاصمة الضباب على العودة إلى القاهرة التي اعتقد أنها تنكرت لموهبته ، ولم تتح محافلها لمكان اللائق لنشره وشعره ، فعمل تارة كمراسل لصحيفة «الكتلة» القاهرية في لندن ، ثم افتتح – وبمعونة مالية من خاله – مكتباً للاستيراد والتصدير بالعاصمة البريطانية ، واختتم محاولاته للإقامة الدائمة في لندن ، ليجد نفسه – وفي عام ١٩٤٨م أمام رفض صريح من الحكومة البريطانية تجديد إقامته ، فلم يعد هناك أمامه مفر من الرحيل.

أثرت إقامة أحمد فتحي في عصمة الضباب تأثيرًا بالغ الحدة في تحويل أشعاره إلى أغنيات ، فبعد أن تناقضت الأغنيات المأخوذة من شعره أو زجله أثناء عمله مع الجيش البريطاني في ليبيا إلى سبع وست أغنيات في عامي ١٩٤٢م ، و ١٩٤٣م تناقض ذلك العدد حتى توقف ما تنتجه الإذاعة المصرية تماما من أغنيات وإبداعاته خلال العامين الأخيرين من إقامته بلندن، حيث قدمت الإذاعة المصرية ثلاث أغنيات جديدة فقط من شعر أحمد فتحي في عام ١٩٤٤م ، وفيما يلي بيان أسماء من لحنوا هذه الأغنيات ومن تغنوا بها وتاريخ إذاعتها الأولى :

- الشوق ناداني: لحن وغناء محمد صادق ، ٤/ ١/ ١٩٤٤م.
- فجر : لحن وغناء رياض السنباطي ، ١١/ ٢/ ١٩٤٤م .
- أنت : لحن وغناء محمد صادق ، ٣١/ ١٠/ ١٩٩٤م.

لقد جاء تاريخ إذاعة كل من «الشوق ناداني» ، وفجر» معاصراً لإقامة أحمد فتحي القصيرة بالقاهرة فيما بين عودته من ليبيا وسفره إلى لندن، ومن الواضح الآن أن إقامته بالقاهرة خلال تلك الفترة قد ساهمت وبشكل مؤثر في عرض نصي هاتين الأغنيتين على كل من محمد صادق ورياض السنباطي، مما ترتب عليه اقتناعهما بتلحينهما ، ومن ثم التغني بهما، وهنا يكمن أيضًا لمن يتأمل أحداث عام ١٩٤٤م في حياة أحمد فتحي، أن يتوقع أن الأغنية

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص١٢٩.

الثالثة في التي أُنتجت من شعر أحمد فتحي في ذلك العام.. ربما تكون قد عرضت على محمد صادق، وتم أيضًا الاتفاق على غنائها أثناء إقامة أحمد فتحي بالقاهرة، وأيا ما كانت الحقيقة في ذلك ، فإن الأمر المؤكد الآن.. هو أن إنتاج الأغنيات من شعر أحمد فتحي أو زجله قد تأثر كثيرًا بذهابه إلى لندن، إن ما رصد من أغنيات جديدة أنتجت فيما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨ من إبداعات أحمد فتحي يقدم الدليل على صحة المقولة السابقة، فقد كشفت مراجعة نصوص برامج الإذاعة المصرية خلال تلك الفترة عن أن ما قدم لأحمد فتحي من أغنيات جديدة قد بلغ أغنية واحدة في كل عام خلال الفترة فيما بين عامي ١٩٤٥م و١٩٤٧م ، بينما خلا عام ١٩٤٨م من أي أغنيات جديدة له ، واقتصرت الإذاعة في ذلك العام (١٩٤٨م) – كدأبها في الأعوام السابقة – على إعادة بث أغنيات أنتجت من شعر أحمد فتحي فيما مضى من أعوام ، كانت أغنية عام ١٩٤٥م الوحيدة لأحمد فتحي هي تانجو «فكرتي»، وهي من تلحين وغناء محمد صادق، وقد قدمتها الإذاعة لأول مرة في سهرة الأحد ١٩/ ٨/ ١٩٤٥م ، أما أغنية عام ١٩٤٦م.. فقد كانت قصيدة «أغاريد من ذكرى هواك» التي لحنتها وتغنت بها في سهرة الخميس ٢٥/ ٧/ ١٩٤٦م الفنانة اللبنانية الأصل الفنانة اللبنانية الأصل والمصرية الإقامة لوردكاش ، بينما كانت طقطوقة «افتكرك ليه وانت ناسيني، التي تغنت بلحنها الذي وضعه أحمد عبد القادر مطربة ناشئة – آنذاك – تدعى نوال، هي الأغنية الجديدة الوحيدة التي قدمتها الإذاعة في عام ١٩٤٧ من أعمال أحمد فتحي، وقد أذيعت هذه الطقطوقة لأول مرة في سهرة السبت ١٨/ ١/ ١٩٤٧م، وهكذا بلغ الضرر الذي أصاب الإنتاج الغنائي من شعر أحمد فتحي وزجله منتهاه بهجرته التي لم تنجح إلى بلد الضباب.

إلى الحجاز:

لم تكن كل إقامة أحمد فتحي بلندن ضراً كلها ، ولكن هناك – وبالتأكيد – خير أصابه منها ، ومن ذلك الخير لقاؤه وتعرفه على بعض الشخصيات العربية المهمة ، ومن هذه الشخصيات التي التقى بها أحمد فتحي في لندن الأمير عبد الله الفيصل نجل الملك السعودي الراحل فيصل بن عبد العزيز آل سعود، كان الشعر هو ما جمع بين الأمير وأحمد فتحي، حيث كان الأمير عبد الله شاعرًا وله دواوين مطبوعة ، وقد تحول البعض من شعره – مثله في ذلك مثل أحمد فتحي – إلى أغنيات شدت بها أصوات كبيرة مثل: أم كلثوم،

وعبد الحليم حافظ ، ونازك، عمل الأمير عبد الله الفيصل على تعيين أحمد فتحي – خلال عام ١٩٤٨م – في وظيفة مراقب عام ١٩٥٣ ، عندما أنهت الإذاعة السعودية عمله بها ، فعاد من جديد إلى القاهرة ، ليجد أن الحياة قد تغيرت كثيرًا في مصر بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، لم يكن مردود الأعوام الخمسة التي قضاها أحمد فتحي بالأراضي الحجازية على إنتاجه من الأغنيات الجديدة أفضل من عائد سنوات إقامته بلندن، من هذه الأغنيات ، حيث كشفت مراجعة المتاح من برامج الإذاعة المصرية خلال تلك الأعوام أن الإذاعة لم تنتج ولو حتى أغنية واحدة جديدة من شعر أو زجل أحمد فتحي في تلك الأعوام ، واقتصرت ما تذيعه الإذاعة من أعماله في أعوام إقامته بالمملكة العربية السعودية على إنتاجها القديم من الأغنيات التي عرضنا لها هنا.

الأغنية الأخيرة:

عاد أحمد فتحي إلى القاهرة ليتخذ من إحدى غرف فندق كارلتون بشارع ٢٦ يوليو مسكنًا ، وليكتشف أن القاهرة في عام ١٩٠٣م قد تغيرت كثيرًا عما كانت عليه يوم أن رحل عنها في عام ١٩٤٣، كانت الثورة الوليدة قد غيرت – وخلال شهور قلائل – الكثير من عناصر الإنتاج في المجتمع المصري، حيث أعادة الثورة صياغة تلك العناصر وفقا لما نادت به من مبادئ، وما قامت عليه من أفكار ، كان الغناء – وبوصفه إحدى الصناعات المواكبة لازدهار المجتمعات – في القلب من عناصر الإنتاج التي عمتها تغييرات الثورة، فلحق بالكلمة المغناة الجانب الأكبر من ذلك التغيير، حيث أزاحت الأزجال العامية والتي يفهمها الفلاح والعامل وعامة الشعب – الأشعار جانبًا في مجال إنتاج أغنيات العهد الجديد، واستمع الناس بعد أسابيع من قيام الثورة إلى أغنية محمد قنديل الشهيرة «ع الدوار» ، وذاعت في تلك الأيام أيضا أغنيات مثل : «قولوا لمأذون البلد» لمحمد رشدي، ويا صحراء المهندس جاي لسيد إسماعيل وحورية حسن ، وكان ذلك إيذانًا بتغليب الأزجال الشعبية في العهد الجديد على الشعر الذي لا يفهمه ولا يتذوقه سوى الأفندية من ذوي الياقات البيضاء ، لقد عمل ذلك الاتجاه بالإضافة إلى سنوات ٩ الاغتراب والحالة النفسية السيئة على غياب أشعار أحمد فتحي تمامًا من سوق الغناء المصري بعد عودته من المملكة العربية السعودية ، وليعتكف في مسكنه بغرفة الفندق ، وقد استولت عليه السوداوية

التي كانت تنتهي به في كثير من الليالي إلى البكاء المر[1].

واقتصر إنتاجه بعد عودته إلى القاهرة على مقالات يكتبها بين الحين والحين في صفحة الأدب بصحيفة «الجمهورية» وبعض الخواطر الشعرية تظهر بالصفحة الأخيرة من صحيفة «الأهرام» ومن هذه الخواطر قصيدته التي عرفت باسم «قصة الأمس» ، والتي يتكون مطلعها من الأبيات التالية:

أنا لن أعود إليك مهما ... استرحمت دقات قلبي
أنت الذي بدأ الملالة ... والصدود وخان حبي
فإذا دعوت اليوم ... قلبي للتصافي لن يلبي

لقيت هذه القصيدة قبولا عند أم كلثوم، وهي التي أضنت أحمد فتحي قبلهما برفضها قصيدة «نداء الغروب» يوم أن بعث بها إليها في عام ١٩٤١م[2]، ولكنها عهدت بالقصيدة الجديدة بعد ظهورها في «الأهرام» إلى الموسيقار الكبير رياض السنباطي كي يلحنها كما لحن لها من قبل العديد من القصائد الجميلة، فصاغ لها السنباطي – باقتداره الذي لا يجاريه اقتدار في تلحين القصائد- لحنا جميلا من مقام النهاوند، ثم أضافت أم كلثوم إلى لحن السنباطي من حرارة أدائها وصدقه الكثير ، فخرجت القصيدة لتحصد إعجاب الجميع، وكانت مسك الختام في مسيرة تحول أشعار أحمد فتحي إلى أغنيات، إذ لم يعش بعد إذاعة الأغنية كثيرًا ، حيث وافته المنية في غرفته بالفندق قبل فجر الاثنين الرابع من شهر يوليو عام ١٩٦٠م.

تعد «قصة الأمس» الأقل حظاً فيما غنت أم كلثوم من قصائد، فهي لا تذاع – حتى في حياة أم كلثوم – إلا لماما ، وليس هناك من يدري.. هل نالت الأغنية جانبا من حظ ناظمها في الحياة؟ .. أم ماذا؟ ولكن الأمر المؤكد بشأن هذه الأغنية هو أن ثمة خطأ قد صاحب التاريخ لها في أكثر من كتاب، فقد ذكر الكاتب حنفي المحلاوي في كتابه «شعراء أم كلثوم» أن : «مع إشراقات شهر فبراير من عام ١٩٥٨م نقلت الإذاعة المصرية حفلاً كبيراً لأم كلثوم تغنت فيه بقصيدة «قصة الأمس».

(١) صالح جودت: المصدر السابق، ص ١٤٨.
(٢) صالح جودت: المصدر السابق، ص ٤٩-٥١.

وجاء في موسوعة «أعلام الموسيقى الشرقية» الذي أعده كل من: د.إيزيس فتح الله ، ومحمود كامل عن أم كلثوم : أن أم كلثوم قد تغنت بقصيدة «قصة الأمس» لأحمد فتحي في عام ١٩٥٨م (ص٦١) ، وبالرغم من ذلك فإن البحث في الدوريات المعاصرة لما ذكره المحلاوي، وما أثبته كل من د.إيزيس فتح الله ، ومحمود كامل من غناء أم كلثوم القصيدة في عام ١٩٥٨م لم يقدم دليلا واحداً على صحة المعلومات القائلة بأن أم كلثوم قد تغنت بقصيدة «قصة الأمس» في شهر فبراير من عام ١٩٥٨م أو في أي من شهور ذلك العام، إن القول بأن «قصة الأمس» قدمت في حفل أقيم في شهر فبراير من عام ١٩٥٨م يصطدم بحدثين مهين: أولهما: أن أم كلثوم قدمت في ذلك الشهر أغنيتين جديدتين هما: «في ربا الفيحاء» ، و«بعد الصبر ما طال»، فهل يعقل أن تقدم أم كلثوم – وهي المقلة والمدققة في إنتاجها – أغنية ثالثة في نفس الشهر؟ ويجيء الحدث الثاني لينسف تمامًا حكاية غناء أم كلثوم لقصيدة «قصة الأمس» في شهر فبراير من عام ١٩٥٨م، يتمثل ذلك الحدث في أن أم كلثوم شغلت طوال شهر فبراير ١٩٥٨م بتسجيل أغنياتها في البرنامج الغنائي الإذاعي «رابعة العدوية» ، وقد أذيع هذا البرنامج لأول مرة من الإذاعة المصرية في يوم الأحد ٣ رمضان من سنة ١٣٧٧ هـ والموافق ٢٣/ ٣/ ١٩٥٨ ، ويتبقى بعد ذلك احتمال واحد يتمثل في إمكانية تقديم القصيدة في شهر آخر من شهور عام ١٩٥٨م خلاف شهر فبراير، وهو احتمال يؤكد ما ذكره كل من د. إيزيس فتح الله ، ومحمود كامل في كتابهما، وللتدقيق في هذا الاحتمال الأخير تم الرجوع إلى سجلات برامج الإذاعة المصرية خلال عام ١٩٥٨م ، فلم تشر هذه السجلات إلى أن «قصة الأمس» قدمت في أي يوم من أيام عام ١٩٥٨م ، ولكن البحث في سجلات البرامج لعام ١٩٥٩م كشف أن «قصة الأمس» قد أذيعت لأول مرة من الإذاعة المصرية في العاشرة والثلث من مساء الأربعاء السادس من مايو عام ١٩٥٩م، وقد شهد اليوم التالي للإذاعة الأولى للقصيدة إحياء أم كلثوم لحفلها الشهري ، وهو الحفل الذي نقلته الإذاعة المصرية في تمام العاشرة مساء من مسرح حديقة الأزبكية بالقاهرة ، ولقد جاء تأكيد هذه المعلومة في الرثاء الذي حرره الكاتب الراحل كمال الملاخ تحت عنوان: «مات أحمد فتحي شاعر النيل» بالصفحة العاشرة من عدد «الأهرام» الصادر صبيحة وفاة أحمد فتحي في يوم الاثنين الرابع من يوليو عام ١٩٦٠م ، حيث قال

كمال الملاخ في ثنايا رثائه لأحمد فتحي: «وغنت له أم كلثوم في العام الماضي(أنا لن أعود)» . وأيا ما كان الأمر.. فإن من بين سبعة وأربعين أغنية أمكن رصدها وأنتجتها الإذاعة المصرية من أشعار وأزجال أحمد فتحي تبرز ثلاث قصائد ، هذه القصائد الثلاث – وطبقاً لأسبقية إذاعة كل منها – هي: «حديث عينين» لأسمهان ، «الكرنك» لمحمد عبد الوهاب، و«قصة الأمس» لأم كلثوم ، وإن واحدة من هذه القصائد الثلاث تكفي لتخليد اسم ناظمها بين المجيدين من شعرائنا المعاصرين.

شاعر الرقة العاطفية

كتب عباس محمود العقاد في مقدمة كتاب صالح جودت «ناجي ، حياته وشعره» يصف أسلوب إبراهيم ناجي بأنه ينتمي إلى مدرسة الرقة العاطفية وقال أن مدرسة الرقة العاطفية كانت غالبة على بعض أصحاب الأقلام الناظمين والناثرين من أدباء تلك الفترة في ثلاثينيات القرن العشرين.

وهذه الصفة يشترك فيها كل الشعراء الرومانسيين الغزليين وجلهم ظهرت بواكير شاعريته على صفحات مجلة «أبو للو» في الثلاثينيات وبهذا تندرج هذه الصفة على شعر ناجي وصالح جودت وعلى محمود طه وكامل الشناوي .

وبهذا المقياس نقول: إن أحمد فتحي كان شاعر الرقة العاطفية sentimentalism وخير مصداق على هذا قصائده الرقيقة الهامسة التي تذوب رقة وعذوبة وموسيقية يقول في قصيدته «فجر» التي يغنيها رياض السنباطي[1] :

كل شيء راقص البهجة حولي هاهنا
أيها الساقي بما شئت اسقنا ثم اسقنا
واملأ الدنيا غناء ، وبهاء ، وسنا
نسيتنا ، لم لا ننسي أغاريد المنى
علنا أن تعرف النوم هنا أعيننا

وأبدع شاعرنا في الأسلوب الشعري poetic style في قصائده ففي نفس القصيدة نجد تلك التعابير الموحية القوية مثل «هتافات الربي» و «جبين الغد» وغيرهما ، يقول :

(١) أحمد فتحي ، قال الشاعر ، ص : ١٢٧ ، القاهرة ١٩٤٩ .

ذهـب الأمـس، بـما راع ، ويـومي ذهبـا
يـسرع الليـل فـراراً ، مـن هتافـات الـربي
وجبـين الغـد يلقـى ، عـن سـماه الحجبـا
باعثـاً في جانـب الأفـق بـشيراً محـسناً
تـسبق الفرحـة خطـاه ، قـبلما يبـدو لنـا

كما نجد الرمز الشعري poetic symbol في القصيدة حين يهيب بالساقي أن يبعد الكأس عن فمه لأنه يريد أن يفيق من أوهام الخيال وشطحاته :

رُدَّ كأسي عن فمي يأيها الساقي ودعني
وأفِقْ من نشوة الراح ومن حلم التغني
كـلُّ مـا مـرَّ بنـا وهـمُ خيـالٍ وتمنـىً
حسبنا وهماً ، وحلماً ، وخيالاً ، حسبنا
أقبل الصبح ، فهل تدري بماذا جاءنا ؟

وفي أسلوب أحمد فتحي نرى الإشراق والتوقد والعذوبة والرقة ، وكلها تندرج تحت صفة «الرقة العاطفية» وكل ذلك في حسن نسق وجمال إيقاع وموسيقا هامسة رقيقة ففي شعره موسيقا معبرة رقيقة تطبع شعره كله بجرس هامس وإيقاع رقيق هادئ .

يقول في قصيدته الوجدانية «ظنون» [1] :

ألقـــاكِ مفتـــون الخيـــال مُعـــذباً
مـــا بـــين شـــك حـــائر ويقـــين
أشـكو إليـك مـن الظنـون ، وربـما

(١) قال الشاعر ، ص : ١٠٥ .

سـبقت إليـك هواجـسي ، تـشكوني
وأرى الـسني والطهـر فيـك ، فتنطـوي
عنـي خيـالاتي ووهـم ، ظنـوني

◆◆◆

وفي قصيدته الغزلية الرقيقة «أنت» التي يتغنى فيها بسحر محبوبته وإشراقها نجد رقة اللفظ وجمال الصياغة وطرافة المعنى في أسلوب موسيقى هامس رقيق يقول [1] :

سَألتني عنكَ أشواقي وأحلام سهادي
وأمـانيَّ التـي تـصحبني في كـل واد
وخيالاتي ، ومـا أكثـر مـا تغشى فـؤادي

◆◆◆

أنتَ في عيني ضياءٌ لا ترى عيني سواه
كلـما أشرق حيّـاني شـعاعٌ مـن سـناه
تبعث الفرحةَ والنشوةَ في روحي خطاه

◆◆◆

أنـتَ في سـمعي نـشيدٌ قـدسُّي الـنغم
كلـما طـاف بآفـاقي تـوارى ألمـي
وتناسـيت نـواحي ، وجراحـي ، ودمـي

◆◆◆

أنـتَ في قلبَي معنًى سرُّه البـاقي مـصون

(١) قال الشاعر ، ص : ١٣٥ .

يمـلأ الـدنيا ولا تـدرك مرمـاه العيـون

لـو يقولـون عرفنـاه ، فـوهمٌ ، وظنـون

◆◆◆

أنت في عيني ، وفي سمعي،وفي قلبي،مقيم

أبـداً أشـدو بـذكراكَ وأصـبو وأهـيم

هـي في بعـدك ألحاني ، وكـأسي ، والنـديم

إننا نجد هنا المعنى العميق والموسيقا الهامسة والرقة العاطفية واللفظة الحية.

◆◆◆

والرقة عند شاعرنا طبع أصيل عنده وقد ابتكر تعبيرات جميلة وأضاف إلى قاموس الوجدان تعبيرات قوية ومعاني عميقة رائعة ، يقول في قصيدته «إليها»[1] :

كيف أنساك ، وقد طاف الهوى أمس علينا

فـشربنا صـفوه حتـى روينـا وانتـشينا

ونـسجنا حولنـا الأحـلام مـن وشـى يـدينا

كما وفق في استخدام الصورة الحية في شعره ، يقول في نفس القصيدة :

كيـف لا أسـترحمُ الطيـف إذا مـرَّ وحيّـا

وأناجيـــه بحبـــي ، وأناديـــه إليَّـــا

علـه يـرحم ، أو يعطـف ، أو يحنـو ، عليـا

ولأحمد فتحي قدرة بارعة في التصوير بالضوء والظل والصوت فهو من الشعراء التصويريين المبدعين الذين يجيدون إضفاء الظلال في شعرهم مما يكسبه قوة وعمقا وصدقاً وجمالاً .

(١) قال الشاعر ، ص : ١٣٩ .

إن الصورة الشعرية poetic image في شعره دقيقة ومعبرة ونابضة بالحرارة والصدق الفني.

في قصيدته التصويرية الوصفية «الكرنك» يبلغ أقصى غايات التصوير بالضوء والظل، فهو في أبيات القصيدة الأولى يرسم لوحة جميلة يبزغ فيها الشعاع الجميل الساحر [1] :

طاف بالدنيا شعاعٌ من خيالي
حائرٌ يسأل عن سرِّ الليالي
يالـه من سرها الباقي ويالي
لوعة الشادي ووهمُ ، الشاعر

◆◆◆

كيف لا يدري إلى أين الشعاع
وأماسيه لقاء ووداع
وخُطاه في لسبيلين متاع
راحة المضني ، وهَدْى الحائرِ

كما يتردد «الصوت» في شعره ، فهو يصور منظر الدنيا حين صحت على ضوء الصبح «الرطيب» وكيف أصغي المعبد للحن القريب :

صحت الدنيا على صبح رطيب
وصغى المعبد للّحن القريب
مرهفاً ينساب من نبع الغيوب
ويغاديه بفن الساحر

ويبلغ ذروة تصويره بالضوء والظل والصوت في هذا المقطع الرائع :

(١) قال الشاعر ، ١٩٤٩م ، ص : ١٢٣ .

حـين ألقـى الليـل للنـور وشـاحه
وشـكا الطـل إلى الرمـل جراحـه
يـا تـرى هـل سـمع الفجـر نواحـه
بـين أنـداء النـسيم العـاطر

بعد هذا التصوير الشاعري بالضوء والظل : بالأبيض والأسود لليل والفجر وبعد تصوير صوت النواح ... يصور شاعرنا بريشته باللون الأحمر جراح الطائر لكنه يضفي جواً من البهجة ويرسم لوحة شاعرية يسودها الضوء المتألق والأنوار المبهجة ، فرغم جراح الطائر (وهو هنا الشاعر) ، فهو يرسل النغم حلوا رقيقا ناعماً وكأني به صوت الشاعر نفسه الذي تصدر قيثارة أعذب الأنغام وأرق الألحان رغم جراح روحه وآلام نفسه ، ذلك الطائر مخضوب الجناح يسعد الليل بآيات الصباح ويغني في غدوٍ ورواح بين أغصان وورد ناضرٍ.

وبعد ، فأسلوب أحمد فتحيَ في مجموعه صورة من نفسه الملهمة وطبعه الرقيق ، وإن ملامحه الروحية والنفسية والوجدانية ممثلة في شعره أصدق تمثيل وأعمقه ولذا جاء شعره انعكاساً صادقاً لانفعالاته وأحاسيسه ويصدق عليه قول «بافون» إن الأسلوب هو الرجل نفسه .

هذا هو غاية الفن الأدبي الأصيل الصادق الخالد على مر العصور والأجيال.